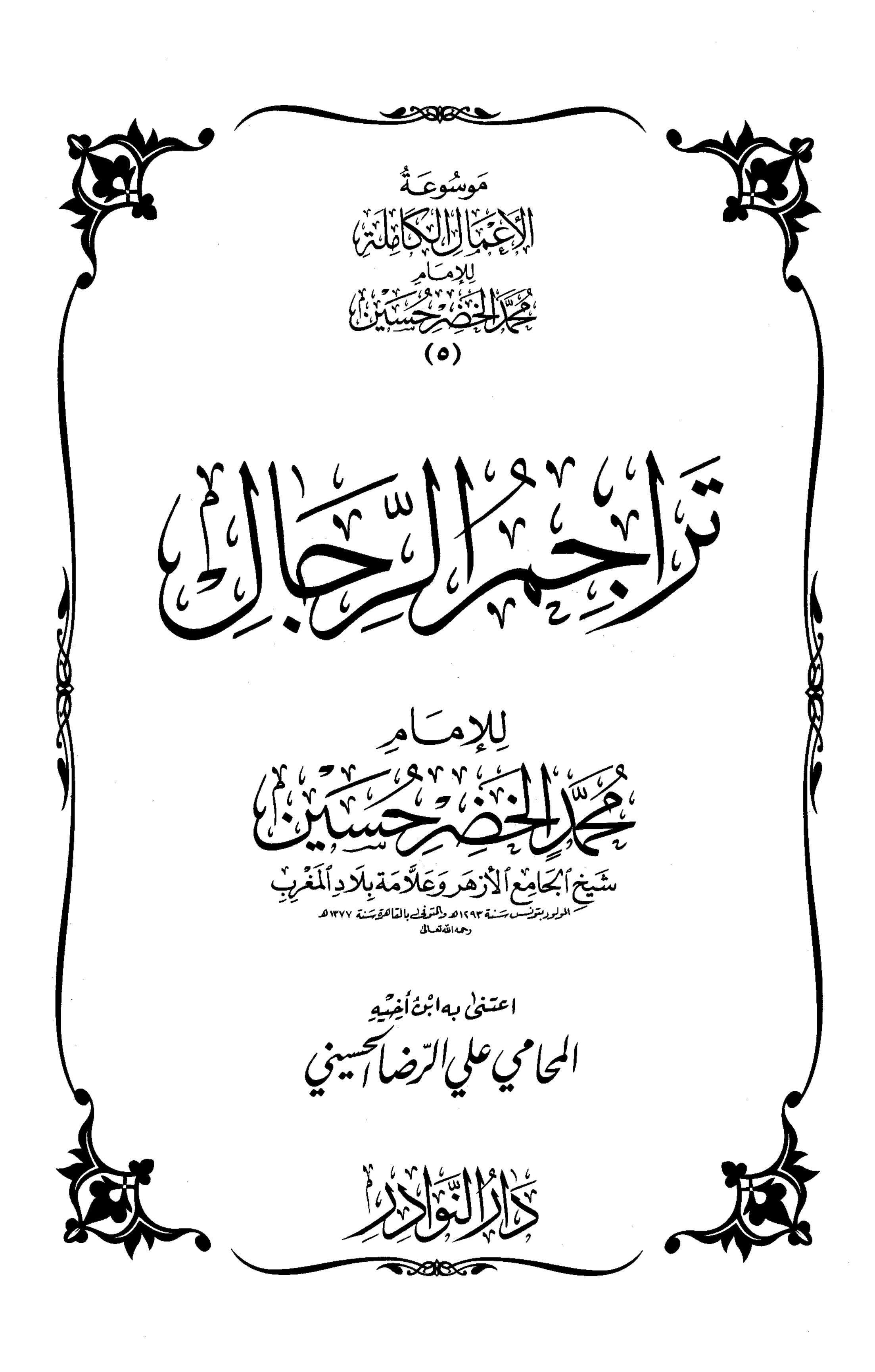


موسوعة

الأعمال الكاملة

للإمام

محمد الخضر حسين

(٥)

تراجم الرجال

للإمام

محمد الخضر حسين

شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب

المولود بتونس سنة ١٢٩٣ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ

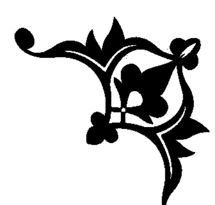
رحمه الله تعالى

اعتنى به ابن أخيه

المحامي علي الرضا الحسيني

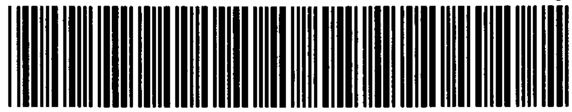
دار النوادر





الطبعة الأولى
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك: ٣ - ٣٥ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ :ISBN



9789933418353



سورية - لبنان - الكويت

مؤسسة دار النوادر م.ف - سورية * شركة دار النوادر اللبنانية ش.م.م - لبنان * شركة دار النوادر الكويتية - ذ.م.م - الكويت

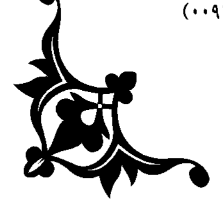
سورية - دمشق - ص. ب: ٣٤٣٠٦ - هاتف: ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس: ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

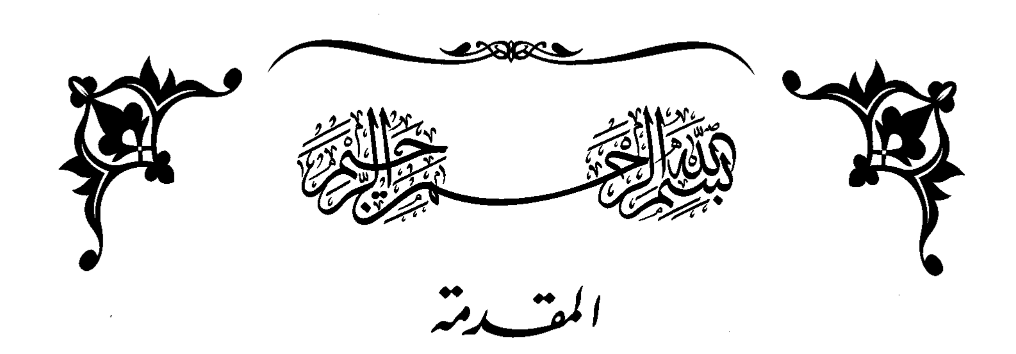
لبنان - بيروت - ص. ب: ١٤/٥١٨٠ - هاتف: ٦٥٢٥٢٨ - فاكس: ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص. ب: ٣٢٠٤٦ - هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أسسها سنة: ٢٠٠٦م
نور الدين طالب
المدير العام والرئيس التنفيذي







المقدمة

«في هذا الأثر الذي سميناه: «تراجم الرجال» ضممنا ما كتبه الإمام الأكبر العلامة محمد الخضر حسين من مقالات عن أعلام الإسلام، ونشر في مجلتي «الهداية الإسلامية»، و«نور الإسلام»، أو ما ألقاه من محاضرات في النوادي الإسلامية.

والهدف من هذه التراجم: أن تكون قدوة للحاكم والمواطن المسلم، ومناراً وهدياً لكل من ينشد حياة ملؤها العزة والسعادة.

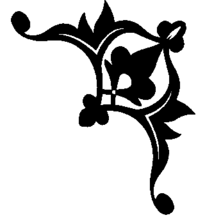
وقد رتبنا الأبحاث في هذا الكتاب وفق التسلسل التاريخي، واعتمدنا في ذلك تواريخ الولادة، دون النظر إلى تاريخ نشر المقال، أو إلقاء المحاضرة.

ولابد من التنويه أن ثمة تراجم قيمة للمؤلف نشرت في كتاب «تونس وجامع الزيتونة»، وهي تراجم الأعلام التونسيين، لم نثبتها في هذا الكتاب.

وندعو الله ـ جل جلاله ـ أن يكون لنا عوناً وسنداً في هذا العمل الذي نقوم به لإحياء التراث الإسلامي للعم.

ونشكر سيدي الوالد الشيخ زين العابدين التونسي ـ رحمه الله ـ على فضله بالتوجيه السديد، والرأي القيم».

علي الرّضا الحسيني

نظرةٌ في ناحيةٍ من خلافة عثمان[1]

أريد أن أضع بين أيديكم صحيفة من صحف التاريخ الإسلامي، صحيفة تحكي جانباً من حديث خلافة عثمان ﷺ، وكنت أود أن أعرض على حضراتكم صحيفة تصعدون فيها أنظاركم، وتصوبونها، فلا ترون إلا ما يقرّ أعينكم، ويبهج نفوسكم، ولكن ألسنة لاغيه، وأقلاماً طائشة، خاضت في الحديث عن خلافة عثمان، فشوهت وجه كثير من الحقائق، ووضعت بجانبها كثيراً من الأباطيل، وزعمت أنها تتحدث عنها بعقل وأمانة.

اخترت أن أحضركم بهذه الصحيفة على ما فيها من حديث قد يثير في نفوسكم حزناً وأسفاً، ولعلكم تجدون في تمحيص بعض الحقائق، ودفع كثير من شبه الباطل ارتياحاً يخفف شيئاً من الحزن والأسف على هذه الذكرى المؤلمة.

ولا أريد الحديث عن خلافة عثمان منذ بويع إلى أن لقي ربه شهيداً، وإنما أذكركم بكلمة من فضله وشواهد استقامة على الطريقة، وعلوّ منزلته عند الخالق العظيم ورسوله الكريم.

---

(١) محاضرة الإمام بدار جمعية «الهداية الإسلامية» بالقاهرة في يوم الجمعة ١٨ من ذي القعدة سنة ١٣٥٨، ونشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» الجزأين السادس والسابع من المجلد الثاني عشر.

* نسب عثمان وحاله في الجاهلية:

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أميـة بن عبد شـمس بن عبد مناف القرشي، فنسبه يلتقي بنسب النبي ﷺ في عبد مناف، وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة، أمها أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، فجدّته للأم عمة رسول الله ﷺ.

وكان عثمان يتعاطى التجارة في البز (الثياب أو متاع البيوت) وكان ذا ثروة وسخاء، محبباً في قريش، ومعروفاً عندهم بالصدق والأمانة.

* دخوله في الإسلام:

كان إسلام عثمان بدعوة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، دعاه هو والزبير ابن العوام، وطلحة بن عبيدالله، فتقبلوا دعوته، وأسلموا.

وكانت منزلة عثمان عند رسول الله ﷺ سامية، فاختاره صهراً، وزوجه ابنته السيدة رقية، ولما توفيت، زوجه أختها السيدة أم كلثوم، ولذا سمي: ذا النورين، وتوفيت أم كلثوم في السـنة التاسـعة من الهجـرة، ويروى أن النبي ﷺ قال: «لو أنّ لنا ثالثة، لزوجناك».

* فضله في الإسلام:

هاجر عثمان في سبيل الله الهجرتين: هجرة الحبشة، وهجرة المدينة، وكان أحد العشرة المبشرين بالجنة، روى أبو موسى الأشعري: أن النبي ﷺ دخل حائطاً، قال: وأمرني بحفظ باب الحائط، فجاء رجل يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره بالجنة»، فإذا أبو بكر، ثم جاء آخر يستأذن، فقال: «ائذن له وبشره الجنة»، فإذا عمر، ثم جاء آخر يستأذن، فسكت هنيهة، ثم قال: «ائذن له وبشره بالجنة على بلوى ستصيبه»، فإذا عثمان.

وقال النبي ﷺ: «من جهز جيش العسرة، فله الجنة»، فجهزه عثمان، ولما قدم المهاجرون المدينة، استنكروا الماء، وكان لرجل من بني غفار عين يقال لها: «رومة»، وكان يبيع القربة منها بمد من الطعام، فاشتراها عثمان، وجعلها للفقير والغني وابن السبيل.

*** ولايته الخلافة:**

لما طعن المجوسي أبو لؤلؤة الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، قالوا له: أوص يا أمير المؤمنين: استخلف، فقال: ما أجد أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ، وهو عنهم راض، وهم: عثمان، وعلي، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف. وعهد لهؤلاء الستة أن يجتمعوا بعد موته ليتشاوروا في مبايعة واحد منهم، ولما اجتمعوا، فوضوا في الآخر إلى عبد الرحمن بن العوف أن يعين للخلافة واحداً منهم، فدار عبد الرحمن ثلاث ليال على الصحابة، ومن وافى المدينة من أشراف الناس، وكان لا يخلو برجل منهم إلا أشار عليه بإمارة عثمان، فبايع عبد الرحمن عثمان، وتوارد الناس بعدُ على مبايعته، ومنهم: علي ابن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ.

*** أول خطبة خطبها:**

بيّن عثمان منهج سياسته في أول خطبة خطبها، ومما قال في هذه الخطبة: «أما بعد: فإني حُمِّلت، وقد قبلت، ألا وإني متّبع، ولست بمبتدع، ألا وإن لكم عليّ بعد كتاب الله ﷻ، وسنَّة نبيه ﷺ، ثلاثاً: اتباع من كان قبلي ممن اجتمعتم عليه وسننتم، وسنّ سنّة أهل الخير فيما لم تسنّوا على ملأ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم».

*** فتوحاته:**

فتحت في عهد عثمان أرمينيا، والقوقاز، وكان ابتداء فتحهما في عهد عمر بن الخطاب، وفتحت بلاد المغرب؛ إذ أمر عثمان عبدالله بن أبي سرح بالمسير إليها، وتم في عهد عثمان فتح بلاد الفرس، وفتحت قبرص، وذكر (سيديو) أن معاوية فتح في ذلك العهد كريد، وجزيرة رودس «سنة ٢٩».

*** كيف نشأت الفتنة؟**

قضى عثمان ﷺ معظم أيـام خلافته والناس مجمعون على حبـه، والاغتباط بإمارته؛ لشـدة رأفته، وواسـع حلمه، ولين جانبـه، ولأن أيدي الناس امتلأت في عهده من المغانم، وصاروا يتمتعون بالعيش الطيب أكثر مما كانوا يتمتعون.

كان بعد هذا أن دخل في الإسلام نفر غير مخلصين في إسلامهم، وإنما يريدون الكيد له، وتفريق كلمة أهله، ومن هؤلاء: عبدالله بن سبأ المعروف بابن السوداء، وهو من يهود حمير، نزل بالبصرة على حكيم بن جبلة العبدي، وابتدأ يبثّ في السر: أن علياً أحق في الخلافة، ويدعو إلى نزع الخلافة من عثمان، فتعلق بدعوته نفر، وبلغ أمره عبدالله بن عامر عامل البصرة، فطرده، وجاء الكوفة، فأُخرج منها، ثم جاء الشام، فأُخرج منها كذلك، فأتى مصر، واتصل به نفر من أوشاب الناس، منهم: كنانة بن بشـر، وخالد بن ملجم، وأخذ يردد عليهم أن علياً وصـيُّ النبي ﷺ، وأن عثمان أخذ الخلافة بغير حق، وبعث من هؤلاء دعاة في البلاد التي كان قد طرد منها، واتفق أن كان لعثمان عمّال من ذوي قرابته، وهناك أناس قد يلاقون من هؤلاء العمال ما لا يوافق أهواءهم، فيطعنون فيهم، ويتخذون

من قرابتهم لعثمان وسيلة إلى الطعن في عثمان، فوجد فريق يوافقون أصحاب تلك الدعاية السرية في الطعن في عثمان نفسه، وإن كان فريقان يختلفان في الباعث على هذا الطعن، فأصحاب تلك الدعاية السرية يريدون تفريق كلمة المسلمين، أو إفساد دينهم، والفريق الثاني إنما يريد نقل الخلافة من عثمان إلى غيره؛ كراهة لبعض عماله، أو رجاء أن يجد في خلافة غيره ولاية أو غنيمة.

وتكوّن من الفريقين جمع يتمضمضون بالطعن في عمال عثمان، ويتعدون بالطعن إلى عثمان نفسه، ينسبون إليه أشياءَ زوراً، ويذكرون بعض أعماله على غير وجهها الصحيح، وكان عثمان يقابل زعماء هذه الدعاية باللين، ولا يزيد على أن يدفعهم بالحجة.

كان جماعة من أهل الكوفة قد أظهروا العداء لعثمان، فأبلغ سعيد بن العاص عثمانَ خبرهم، فكتب إليه بإرسالهم إلى معاوية، وكتب إلى معاوية: أن نفراً خلقوا للفتنة، فقم عليهم، وانههم، وإن آنست منهم رشداً، فاقبل، وإن أعيوك، فارددهم إليّ.

فأنزلهم معاوية، وأجرى عليهم من الرزق ما كان لهم بالعراق، ولكن معاوية بعد محادثتهم، استصغر عقولهم، واحتقر شأنهم، وكتب إلى عثمان يقول له: إنه قدم عليّ أقوام ليس لهم عقول ولا أديان، أضجرهم العدل، لا يريدون الله بشيء، ولا يتكلمون بحجّة، وإنما همهم الفتنة، وليسوا بالذين ينكون أحداً إلا مع غيرهم، فانه سعيداً عنهم، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير.

ومما جعل عمال عثمان يوسعون صدورهم لهؤلاء الطاعنين، ولا يبادرون

إلى عقوبتهم الزاجر: أنهم كانوا يتظاهرون في طعنهم بحال من يريد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقيام دعوة منظمة، لا تهدأ ليلاً ولا نهاراً، تختلق المعايب، وتلصقها بعثمان وعماله، قد تأخذ بأذهان بعض الغافلين عن سريرة أولئك الدعاة، ويتخيلون أن الدعوة لإصلاح أمر الدولة، فيشارك هؤلاء الغافلون ذينك الفريقين في هذه الدعاية، أو يقفون في الأقل موقف الحيادة،

فلا غرابة أن تنقل كلمات في نقد سياسة عثمان عن أناس لا يريدون إفساد حال المسلمين، ولا يبتغون إدراك منفعة خاصة قد فاتتهم، وإنما يقولونها عن تأثر بتلك الدعاية المنظمة الدائبة.

وربما ذكر المؤرخون أشخاصاً معدودين من الصحابة مثل: عمّار بن ياسر، وعمرو بن العاص، ويقولون: إنهم كانوا يؤلبون على عثمان، ومتى صحّ أصل الرواية، فمن المحتمل أن يكون الذي صدر منهم لا يزيد على إبداء آراء يخالفون بها رأي عثمان في بعض تصرفات الدولة، أو تولية رجال يرونهم غير ذي كفاية لما تقلدوا من الأعمال، فجاء بعض ذوي الأهواء إلى هذا النقد الذي لا تخلو منه دولة، وإن بلغت من الرشد والعدل غايتهما، وسمّاه تأليباً.

وقد بلغ الحال بدعاة الفتنة أن يزوّروا رسائل على أنها صدرت من عائشة، وعلي، وطلحة، والزبير في الدعوة إلى خلع عثمان، وبلغ أمر هذه الرسائل إلى هؤلاء الصحابة الأجلاَّء، وتبرؤوا منها، وأنكروا أن تكون صدرت منهم. وبمثل هذه الرسائل المزوّرة كانوا يخضعون الغافلين الذين لا يتثبتون فيما ينقل إليهم من الأنباء.

والظاهر أن من أسباب سريان هذه الدعاية الخبيثة: كثرة من دخلوا في الإسلام ممن لم تستنر بصائرهم بهداية الدين الحنيف حق الاستنارة، ولم يقدروا أصحاب رسول الله ﷺ حق أقدارهم، يضاف إلى هذا: ما كان عليه عثمان من النبل والحلم والحياء.

ثم ما كان يجري عليه عماله من عدم مقابلة الطاعنين فيهم أو في عثمان بالشدة الزاجرة، إما استخفافاً بأمرهم، وإما احتمالاً لهذا المطاعن، ولاسيما مطاعن يتظاهر أصحابها بأنهم يتظلمون، أو يريدون إقامة معروف، أو إزالة منكر.

ومن تتبع سيرة الخلفاء الراشدين، أو من جاء بعدهم من الخلفاء العاقلين، وجدهم لا يعاقبون الناس على نقد سياساتهم، وإن ظهر النقد في أقوال جافية، وهذا معاوية يقول: والله! لا أحمل السيف على من لا سيف له، فإن لم يكن من أحدهم إلا كلمة يشتفي بها، جعلت له ذلك دبر أذني.

*** كيف دبر خلع عثمان أو قتله؟**

مما لا نرتاب فيه: أن ليس للصحابة، ولا لأفاضل التابعين سعي في خلع عثمان، ولا دخل في قتله، وإنما المؤتمرون على ذلك هم دعاة الفتنة، واستعانوا بمن تلون بدعايتهم، ونعوّل في هذا على أقوال المحدثين والمحققين من المؤرخين.

قال الحافظ أبو بكر العربي في كتاب «القواصم والعواصم»: وقد سمّوا من قام على عثمان، فوجدناهم أهل أغراض سوء، حيل بينهم وبينها، وقال: إن أحداً من الصحابة لم يشنع عليه، وقد انتدب المردة الجهلة أن يقولوا: إن كل فاضل من الصحابة كان عليه مشاغباً مؤلباً، وبما جرى عليه

راضياً، واخترعوا كتباً فيها فصاحة وأمثال، وادعوا أن عثمان كتب بها إلى علي، وذلك كله مصنوع؛ ليوغروا قلوب المسلمين على السلف الماضين، والخلفاء الراشدين.

اجتمع بعض رؤوس الفتنة بالكوفة، وأخـذوا يزيدون نارها حطباً، فكتب سعيد بن العاص يشكوهم إلى عثمان، فأمره بإرسالهم إلى عبد الرحمن ابن خالد عامل حمص، فوبّخهم خالد، وتوعدهم، فهابوا سطوته، وأظهروا التوبة، وأرسل بهم إلى عثمان متظاهرين بالتوبة، فخيرهم عثمان بالبلاد التي يريدون استيطانها، فاختاروا التفرق، وذهب كل إلى البلد الذي اختاره، ولما سار كل إلى ما اختار، عادوا إلى إيقاد الفتنة وتأليب الجماعة، وتكاتبوا من أمصارهم في القدوم على المدينة، حتى جمعوا أمرهم، وعزموا على خلع عثمان أو قتله، وتوجهوا نحو المدينة، متظاهرين بقصد الحج، وكان على أهل البصرة حكيم بن جبلة، وعلى أهل الكوفة الأشتر النخعي، وعلى أهل مصر عبد الرحمن بن عديس البلوي، فدخلوا المدينة في نحو أربعة آلاف شخص، فاطلع عليهم عثمان من حائط داره، ووعظهم، وذكرهم، فاستشاطوا، ولم تنجع فيهم الموعظة، وأراد الصحابة أن يدفعوهم عنه، فأوعز إليهم عثمان أن لا يقاتل أحد بسببه أبداً، وثبت أن عبد الرحمن بن الزبير قال لعثمان: إن معك في الدار عصابة مستبصرة، ينصر الله بأقل منها، فأذنْ لنا، فقال: أذكر الله رجلاً أراق لي دماً. وقال سليط بن سليط: نهانا عثمان عن قتالهم، ولو أذن لنا، لضربناهم حتى نخرجهم من أقطارنا. وجاءه زيد بن ثابت، فقال له: إن هؤلاء الأنصار بالباب يقولون: إن شئت كنا أنصار الله مرتين، قال: لا حاجة لي في ذلك، كفوا. وروي: أن عبدالله بن عامر قال: كنت مع عثمان في الدار، فقال لي: اعزم على كل من رأى أن عليه سمعاً وطاعة

إلا كف يده وسلاحه.

ويحدثنا القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب «العارضة»، فيقول: ولقد قتل عثمان، وطالبوه أربعة آلاف، وفي المدينة أربعون ألفاً، كلهم لا يريد قتله، ويريد نصره، ولكنه دفعَ الكلَّ، واستسلم للأمر بالعهد الذي كان عنده، ولم يرض أن يراق بسببه دم، ورضي أن يكون عند الله المظلوم، ولا يكون عند الله الظالم.

ولما ضرب أولئك البغاة على عثمان الحصار، كان معه وعلى بابه جماعة من الصحابة وأبناء الصحابة يحرسونه، منهم: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وعبدالله بن عمر، والحسن، والحسين، وعبدالله بن الزبير، ومحمد ابن طلحة، وعبدالله بن عامر، وربما وقعت بينهم وبين الثائرين مدافعة، حتى أصيب الحسن وغيره بجراح.

ثم إن هؤلاء الثائرين اقتحموا دار عثمان يريدون قتله.

ويذكر المؤرخون في أسماء من باشروا قتله: محمد بن أبي بكر الصديق، ومحمد بن أبي بكر لم يكن من الصحابة؛ لأنه ولد سنة حجة الوداع، وهي السنة التي انتقل عقبها النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، فكان أيام فتنة عثمان لم يزل في أوائل عهد الشباب. على أن بعض الروايات تقول: إن محمد بن أبي بكر بعد أن دخل على عثمان كلّمه ووعظه، فرجع، ثم دخل سفهاء القوم، فسفكوا دمه الطاهر، وكتاب الله بين يديه، وصعدت روحه الطاهرة إلى مقام كريم.

*** رد ما ينسب إلى عثمان من الأحداث:**

يذكر المؤرخون أشياء كان الناقمون على عثمان قد اتخذوها أسباباً

لثورتهم عليه، ومن هذه الأشياء ما هو مفترى على عثمان قطعاً، ومنها ما لو صحّ، لم يكن موضع إنكار، وإنما هو من قبيل ما يرجع إلى اجتهاد الإمام، ويقع مثله من الخلفاء الراشدين، ومنها ما يعد في حسناته وصالح أعماله.

وها نحن هؤلاء نعرض على حضراتكم ما قصه المؤرخون وبعض المحدثين من الأمور التي طعن بها الطاعنون في عثمان، وجعلوها أسباب قيامهم عليه:

قالوا: ولّى عمالاً من ذوي قرابته، وزعموا أنهم ليسوا أهلاً للولاية. وذكروا: معاوية بن أبي سفيان، والوليد بن عقبة، وعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وسعيد بن العاص، وعبدالله بن عامر، ومروان بن الحكم.

ويدفع هذا بأن تعيين الولاة يرجع إلى اجتهاد الإمام، وتقوى عثمان، وإخلاصه في سياسة الرعية يجعلنا على ثقة من أنه ولّى بعض ذوي قرابته بعد أن عرف كفايتهم للأعمال، والمعيب أن يولي قريباً لا يكون كافياً للعمل، أو يؤثره في الولاية، وهو على علم بأن غيره أكفى منه، ثم إن معاوية ولاّه الشام عمر بن الخطاب، ولم يزد عثمان على أن أقرّه على الولاية، وكذلك الوليد بن عقبة كان عاملاً لعمر بن الخطاب على الجزيرة، وكان من عثمان أن ولاّه الكوفة، فقدمها وسار في الناس خمس سنين سيرة حسنة، حتى اتهمه جماعة بشرب الخمر، فاستقدمه عثمان، وأقام عليه الحد، وولّى مكانه سعيد بن العاص، وسعيد بن العاص نشأ يتيماً في حجر عثمان، ثم انتقل إلى الشام، وأقام بها عند معاوية، فذكره عمر بن الخطاب يوماً، واستقدمه إلى المدينة، وأكرمه، وكان شريف النفس، سخي اليد، فصيح

اللسان، لا يختلف اثنان في كفايته للعمل.

وأما عبدالله بن عامر بن كريز، فكان ابن خال عثمان، وأمه أمها أم حكيم ابنة عبد المطلب، عمة النبي ﷺ، وعبدالله بن عامر هذا نشأ في الإسلام نشأة طيبة، وكان معدوداً من نجباء قريش وكرمائهم، ولاّه عثمان عاملاً بالبصرة عند اختلاف أهلها على أبي موسى الأشعري، وكان سن عبدالله بن عامر يومئذ خمساً وعشرين سنة، فقاد الجيوش، وفتح خراسان وسجستان وكرمان، وما زال يطارد كسرى يزدجرد حتى قتل كسرى، وانقرضت على يده الدولة الساسانية، وكان لكرمه وحسن خلقه يحبه الناس.

وأما عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فكان عثمان استعمله على الحرب في مصر، وأبقى عمرو بن العاص على الخراج، ثم وقع خلاف بينهما، فاستقدم عثمان عمرو بن العاص، وصارت إمارتا الخراج والحرب إلى عبدالله بن سعد.

وذكر ابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب» سبباً لعزل عمرو بن العاص، هو أن الإسكندرية انتقضت سنة ٢٥هـ، فافتتحها عمرو بن العاص، وعاملهم معاملة الناقضين للعهد، ولم يصح عند عثمان نقضهم، فعزله، وولى عبدالله ابن سرح، فاعتزل عمرو إلى ناحية بفلسطين، وكان يزور المدينة أحياناً.

ويدلكم على أن ولاية عبدالله بن سعد لم تقع موقع الإنكار من الصحابة: أن عثمان أمره بفتح أفريقية، فسار إليها في جيش مؤلف من كثير من الصحابة وأبناء الصحابة، منهم: عبدالله بن عمر، وعبد الرحمن بن أبي بكر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن جعفر، والحسن، والحسين، وعبدالله ابن عمرو بن العاص.

وقالوا: عبدالله بن سعد هذا كان قد أسلم، ثم ارتد وعاد إلى مكة، فنقول: عاد إلى الإسلام، وظهر إخلاصه، والتوبة تجبّ ما قبلها.

قال أبو بكر بن العربي في كتاب «العارضـة»: ولّى عثمان عبدالله بن أبي سرح؛ لحسن سيرته، وحميد طريقته، ولهذا فتح الفتوح في بحر المغرب وبره، وغزا معه جماعة من الصحابة وأبناء الصحابة، وأطاعوه، ورضوا عنه.

وأما مروان بن الحكم: فكان له عندما توفي رسول الله ﷺ ثمان سنين، وتولى الكتابة لعثمان، وروى الحديث عن عثمان وعلي، والواقع أن مروان قد كثر الطعن فيه، ونرى بعض المحدثين يصفه بما يخفف هذا الطعن، فأبو بكر بن العربي يقول: «فمروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين».

وقالوا: رد الحكم إلى المدينة، وقد نفاه النبي ﷺ منها إلى الطائف.

ويدفع هذا بأن النبي ﷺ قد أذن قبل وفاته لعثمان في رده، ولما أبلغ عثمان هذا الإذن أبا بكر وعمر، قالا له: إن كان معك شهيد، رددناه، ولما ولي عثمان الخلافة، عمل على مقتضى علمه بأن رسول الله ﷺ قد أذن في رده، وللحاكم أن يعمل على ما يعلم في غير القضاء بين الخصوم.

وقالوا: كان عمر يضرب بالدرة، وهو يضرب بالسوط، وضرب عمار ابن ياسر، وابن مسعود، ومنعه عطاءه، وضرب أبا ذر، ونفاه إلى الربذة.

وسلك بعض أهل العلم في دفع هذا الإنكار طريقة أن للحاكم أن يؤدب بعض الرعايا بما يراه صلاحاً، ولكن حفاظ الحديث أنكروا هذا الذي يحكيه المؤرخون أشد الإنكار، قال أبو بكر بن العربي في كتاب «العواصم»: أما

ضربه لعمار، وابن مسعود، ومنعه لعطاء بن مسعود، فزور وإفك، وقد اعتذر عن ذلك العلماء بوجوه لا ينبغي أن يشتغل بها؛ لأنها مبنية على باطل، ولا يبنى حق على باطل، ولا يذهب الزمان في مماشاة الجهال، فإن ذلك لا آخر له.

وأما قصة أبي ذر، فهو أن أبا ذر كان زاهداً، وكان يعظ عمال عثمان في الزهد، ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾[التوبة: ٣٤]، وربما أغلظ لهم القول، فشكاه معاوية إلى عثمان، فاستدعاه إلى المدينة، فاجتمع عليه الناس، فكره ذلك، فقال له عثمان: لو اعتزلت! فخرج إلى الربذة زاهداً فاضلاً، ونزل وراء أجله فضلاء.

وقالوا: صعد منبر رسول الله ﷺ، وعلا على الدرجة التي كان يقف عليها رسول الله ﷺ، وقد انحط عنها أبو بكر وعمر.

ويدفع هذا بأن هذه الرواية غير صحيحة، قال أبو بكر بن العربي في «العواصم»: ما سمعت هذا ممن فيه تقية، وإنما هي إشاعة منكر، ليروي ويذكر، ليتغير بها قلب من يتغير.

وقالوا: لما طُعن عمر رضي الله عنه، قتل عبدالله بن عمر الهرمزان بتهمة أن له يداً في قتل عمر، فلم يُقم عثمان على عبدالله بن عمر حدَّ القصاص.

ويدفع بأن هذه الواقعة جرت بمرأى من الصحابة وهو متوفرون، فكيف تقع في أول عهد عثمان ويسكتون عنها؟ وإذا أردنا أن نرجع إلى قول المؤرخين، فقد قالوا: إن الهرمزان سعى في قتل عمر، وحمل الخنجر، وظهرت تحت ثيابه، وقالوا: أعطى الخنجر لأبي لؤلؤة، وحرضه على عمر

حتى قتله. وكان قتل عبدالله له قبل أن يتولى عثمان، ولعل عثمان كان لا يرى على عبدالله حقاً؛ لما ثبت عنده من حال الهرمزان وفعله. ويروى: أن عمرو بن العاص لما اختلف الصحابة في الاقتصاص من عبدالله بن عمر، قال لعثمان: إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك، قال لعثمان: أنا وليّهم، وقد جعلتها دية، واحتملتها في مالي، وانتهى الخلاف.

وقالوا: ابتدع في جمع المصحف، وحرق المصاحف.

ويدفع هذا الطعن بأن الله تعالى وعد بحفظ القرآن، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[الحجر: ٩]، فكان هذا الحفظ على يد عثمان، فإن عثمان ـ كما يقول ابن حزم ـ جمع القرآن في مصحف تحفظ به القراءات المسموعة من النبي ﷺ، وإنما أحرق المصاحف التي تشتمل على شيء يتوهمه واهم، أو يدسه زنديق.

وقالوا: خالف سنة القصر في الصلاة، فصلى بالناس في منى أربع ركعات، وكان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر يصلونها ركعتين.

وجواب هذا: أن تلك السنة كثر فيها الأعراب، فخشي أن يسبق إلى أذهانهم أن الصلاة أربع، فقصد إلى تعليمهم أنها أربع. وروى البيهقي: أن عثمان نفسه خطب في منى، فقال: إن القصر سنة رسول الله ﷺ وصاحبيه، ولكنه حدث طَغام، فخفت أن يستنوا، ولعل الذي نبه إلى هذا ما روي من أن أعرابياً ناداه في منى: يا أمير المؤمنين! ما زلت أصليها منذ رأيتك عام أول ركعتين.

قال ابن العربي في «العواصم»: وأما ترك عثمان للقصر، فاجتهاد؛ إذ سمع أن الناس افتتنوا بالقصر، وفعلوا في منازلهم، فرأى أن السنة ربما

أدت إلى إسقاط الفرض، فتركها خوف الذريعة.

ومما أنكره الثائرون على عثمان: حمايته لأرض كانت للناس عامة، فخصها بإبل الصدقة، واجهوه بهذا الإنكار، فقرؤوا عليه الآية: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ﴾[يونس: ٥٩]، وقالوا له: أرأيت ما حميت من الحمى، آلله أذن لك، أم على الله تفتري؟ فقال: هذه الآية نزلت في كذا وكذا، وأما الحمى، فقد حمى الأئمة قبلي لإبل مصدقة، فلما زادت إبل الصدقة، زدت في الحمى.

وثبت في «صحيح البخاري»: أن رسول الله ﷺ حمى النقيع، وأن عمر ابن الخطاب حمى السرف، والربذة.

وزعموا أنهم لاقوا راكباً خارج المدينة يحمل كتاباً من عثمان إلى عامله بمصر عبدالله بن سعد يأمره فيه بقتل محمد بن أبي بكر، ومن معه من رؤوس هذه الفتنة بعد أن وعظهم وأظهروا التوبة.

ويدفع هذا بأنهم ادعوا هذا، وأنكر عثمان أن يكون قد كتب هذا الكتاب، وقال لهم: إما أن تقيموا شاهدين على ذلك، وإلا، فيميني أني ما كتبت، ولا أمرت، وقد يكتب على لسان الرجل، ويضرب على خطه، وينقش على خاتمه، فقالوا: تسلم إلينا مروان، فقال: لا أفعل، ولو سلمه، لكان ظالماً، وإنما عليهم أن يطلبوا حقهم عنده على مروان(١).

وساق الإمام البخاري في «جامعه» قصة تحتوي شيئاً مما يتلمسه الذين يتنقصون عثمان ﷺ، قال: جاء رجل من أهل مصر، وحج البيت، فرأى قوماً

---

(١) «العواصم» لابن العربي.

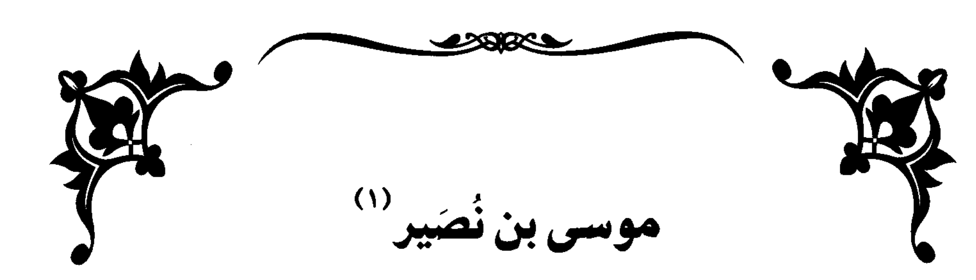
جلوساً، فقال: من هؤلاء القوم؟ قال: هؤلاء قريش، قال: فمن الشيخ فيهم؟ قالوا: عبدالله بن عمر، قال: يا ابن عمر! إني سائلك عن شيء، فحدثني عنه: هل تعلم أن عثمان فرّ يوم أحد؟ قال: نعم، فقال: أتعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهدها؟ قال: نعم، قال الرجل: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟ قال: نعم، قال: الله أكبر!

قال ابن عمر: تعال أبيّنْ لك: أما فراره يوم أحد، فأشهد أن الله عفا عنه، وغفر له. وأما تغيبه عن بدر، فإنه كان تحته بنتُ رسول الله ﷺ، وكانت مريضة، فقال رسول الله ﷺ: «إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمَه». وأما تغيبه عن بيعة الرضوان، فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان، لبعثه مكانه، وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده اليسرى، فقال: «هذه لعثمان».

وملخص هذه المحاضرة: أن عثمان رضي الله عنه لم يأت حدثاً منكراً، ولم يرتكب ظلماً ولا إثماً، وأن الصحابة جميعاً بريئون من دمه، وإنما حاول خلعه، أو خان الله في سفك دمه، نفر ليسوا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولا من القوم الذين يريدون الإصلاح.

ولعل محاضرتنا هذه تنبه شبابنا النابتين نباتاً حسناً على أن يتثبتوا فيما يقصه المؤرخون عن أصحاب رسول الله ﷺ، ولا سيما الذين صاحبوه أعواماً، ووردت الأخبار الصحيحة أنه توفي وهو عنهم راض.





موسى بن نُصَير[1]

هذه صفحة من حياة قائد عظيم كانت له اليد البيضاء في إنشاء دولة إسلامية رفعت لواء الإسلام في غربي أوربا، ومدت فيه ظلال العدل، وبسطت أنوار العلم، والمدنية الباهرة، ذلك هو أبو عبد الرحمن موسى بن نصير فاتح الأندلس.

يقول بعض المؤرخين: إن موسى بن نصير من قبيلة لخم، أو من قبيلة بكر بن وائل، وهو عربي صريح؛ وأشهر ما قيل فيه أنه كان مولى لعبد العزيز ابن مروان.

نشأ موسى بن نصير في وادي القرى بالحجاز، وخدم بني مروان بدمشق، وتنبه شأنه فقلدوه أعمالاً في ممالكهم.

ويروى: أن أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان لما ابتنى بها الوليد كانت ترفع عنده مكانه موسى بن نصير حتى بلغ ما سنحدثك عنه بتلخيص وإيجاز:

كان موسى بن نصير من التابعين، وولد في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٩هـ، وأخذ عن بعض الصحابة؛ كتميم الداري، وكان والده نُصير

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء السابع والثامن من المجلد العشرين.

على حرس معاوية بن أبي سفيان، وله عنده مكانة، ولكنه امتنع من أن يدخل معه في حرب علي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ.

عهد الوليد بن عبد الملك إلى موسى بن نصير بولاية بلاد المغرب سنة ٨٨ أو ٨٩، فنزل القيروان، وخرج غازياً يقص أثر البربر لا يدافعه أحد حتى بلغ «طنجة»، ودان له سائر البربر بالطاعة، فاستعمل على طنجة وأعمالها طارق بن زياد، وقفل راجعاً إلى القيروان.

ولما استتب له الأمر بالمغرب، استأذن الخليفة في غزو الأندلس، فأذن له، وبعث إلى طارق، فأمره بغزوها، فعبر طارق البحر، ونزل بالجبل الذي سمي من بعد: «جبل طارق»، وانساب إلى أرض الأندلس بجيش مؤلف من اثني عشر ألف مقاتل، ففتح جانباً عظيماً من البلاد، وأبلغ موسى ما لاقاه، فلم يرتح موسى لإفراد طارق بفضل هذا الفتح الباهر، فحفزته الغيرة إلى أن تكون القيادة العملية بيده، فكتب إلى طارق يأمره بأن لا يتجاوز المكان الذي يصل إليه الكتاب فيه؛ حتى يلحق به، ولكن طارقاً استشار قواد الجيش، فأشاروا بمواصلة الغزو خشية أن يجد جماعات المنهزمين من الأعداء فرصة التجمع والاتحاد ثم الكر على المسلمين، فأخذ طارق برأيهم، ومضى في سبيله، ثم قدم موسى في جيش ضخم سنة ٩٣، واشتد في توبيخ طارق إذ خالف ما أمره به من وقف الجهاد، بل قال بعض المؤرخين: إنه عزله عن قيادة الجيش، واعتقله مع وضوح عذره، ثم اصطلح القائدان، وأقبلا على الجهاد، وأمعنا في الفتح، وكان النصر حليفهما في كل واقعة، فلم يعارضهما أحد إلا بطلب صلح.

ولما نجح موسى في غزو الأندلس، طمحت همته إلى مواصلة الغزو

حتى يتوغل في أحشاء أوروبا، وينفذ منها إلى القسطنطينية «الآستانة» حتى يصل إلى الشام.

وانتهى خبر هذا إلى الخليفة، فرأى أن ما همّ به موسى غرر بالمسلمين، فبعث ينكر عليه هذا الاتجاه، ويستدعيه وطارقاً إلى دار الخلافة، فأقام موسى ابنه عبد العزيز حاكماً بالأندلس، ودخل الشرق سنة ٩٥ يصحبه طارق، فوصلا إلى الشام. وهاهنا يذكر المؤرخون: أن الوليد طرأ عليه مرض ثقيل، ولما علم سليمان بن عبد الملك وليُّ عهده بقرب وصول موسى، أراد تأخير الاحتفال بقدوم فاتح الأندلس إلى أول خلافته حتى يكون له فخر هذا الفتح، فكتب إلى موسى يأمره بأن يؤخر قدومه إلى دمشق أياماً، ووافاه الكتاب وهو في طبرية فلسطين، فلم يعمل به، ودخل دمشق في حياة الوليد.

ولما مات الوليد، نكبه سليمان؛ لمخالفته أمره بالمسارعة في دخول دمشق.

ويذكر بعض المؤرخين: أن موسى بن نصير قدم على سليمان حين استخلف، وإنما نكبه؛ لأن طارقاً سبق بالشكاية منه إلى سليمان، ورماه بجولان يده في بعض الغنائم، فوجد سليمان ضغيناً عليه، واستقبله بالتأنيب، وعزله عن جميع أعماله. وها هنا روايات في وصف نكبته لا تخلو من مبالغة فيما يظهر، ومن بين هذه الروايات: رواية قد يأخذ منها أن سليمان لم يتجاوز توبيخه وعزله عن جميع الأعمال، فقد جاء في «تاريخ ابن خلكان» ما يأتي: «ولما وصل موسى إلى الشام، ومات الوليد بن عبد الملك، وقام من بعده سليمان، وحج في سنة ٩٧ للهجرة، حج معه موسى بن نصير، ومات في الطريق بوادي القرى، وقيل: بمر الظهران، على اختلاف فيه».

ثبَّت موسى بن نصير دعائم الإسلام في بلاد المغرب، وكان يقصد من فتوحه نشر الدعوة الإسلامية، لا بسط سلطان الدولة وحده؛ إذ ورد في أعماله الماجدة: أنه كان يخصص رجالاً من العرب متفقهين في الدين لتعليم البربر القرآن وفرائض الصلاة، كما فعل عمر بن عبد العزيز ﷺ من قبله.

وكان موسى بن نصير معروفاً بالحزم واليقظة والدهاء، وقد شهد له بهذا عظيم من عظماء الدولة الأموية، وهو يزيد بن المهلب، يروى في سيرة موسى بن نصير: أنه لما تنكر له سليمان بن عبد الملك، لاذ بيزيد بن المهلب لمكانته من سليمان، وطلب منه أن يكلمه في شأنه، فقال له يزيد: لم أزل أسمع عنك أنك من أعقل الناس، وأعرفهم بمكايد الحروب، ومداراة الدنيا، فكيف حصلت في يد هذا الرجل بعد ما ملكت الأندلس، وألقيت بينك وبين هؤلاء القوم البحر الزخار؟ فقال له موسى: يا ابن الكرام! ليس هذا وقت تعديد. أما سمعت: «إذا جاء الحين، غطى على العين»؟

كان موسى بن نصير ثاقب الفكر في وجوه السياسة الدولية والحربية، ويكفي شاهداً على هذا: أنه ولي أمر ما وراء مصر إلى البحر المحيط، فأحكم تدبير شؤونه، وأخضع قبائل البربر، وفتح معظم بلاد الأندلس، ولم يهزم له جيش قط.

وكان ـ رحمه الله ـ فصيحاً بليغاً. قال صاحب «نفح الطيب»: «أما معارفه الأدبية، فقد جاءت عنه بلاغة في النثر والنظم تدخله مع نزارتها في أصحاب دار الكلام».

وكان عامر القلب بإجلال الخالق ـ جل شأنه ـ، وقع قحط شديد

بالمغرب، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء لصلاة الاستسقاء، وخطبهم، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين الوليد؟ فقال: هذا مقام لا يذكر فيه غير الله!.

حفظ التاريخ لموسى بن نصير مقابلته لِما قام به طارق من الفتح بشيء من الجفاء، ولكن ما حفظه له من الهمم الشامخة، والأعمال الفاخرة، يغطي على تلك الهفوة، ولا سيما هفوة جاءت في طريق طموحه إلى وضع لبنات جديدة في بناء مجده الأثيل.

وإذا كان سليمان بن عبد الملك قابل هذا القائد العظيم بجفاء واضطهاد، فإن قلوب الأمة ـ على اختلاف طبقاتها ـ، قد امتلأت بإكباره، والبطل الهمام من يرتاح لرضا الأمة أكثر من إقبال الدولة.





علي زين العابدين(١)

* نسبه:

هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وأمه سلامة بنت يزدجرد آخر ملوك الفرس، ذلك أن سبي فارس لما أتي به إلى المدينة في خلافة عمر رضي الله عنه، وكان في هذا السبي ثلاث بنات ليزدجرد، صارت إحداهن إلى عبدالله بن عمر، وهي أم ابنه سالم، وصارت الثانية إلى محمد ابن أبي بكر الصديق، وهي أم ولده القاسم أحد الفقهاء السبعة، وصارت ثالثتهن إلى الحسين بن علي، وهي أم ولده علي زين العابدين رضي الله عنه(٢).

* مولده:

ولد زين العابدين سنة ثمان أو سبع وثلاثين بالكوفة، فكانت ولادته قبل وفاة علي ـ كرم الله وجهه ـ بنحو ثلاث سنين.

---

(١) محاضرة الإمام ألقاها في قبة الغوري بالقاهرة بدعوة من إدارة شركة سيارات (أوتوبيس) الدقهلية والشرقية، ونشرت في مجلة «الهداية الإسلامية». الجزء الرابع من المجلد الخامس عشر.

(٢) الزمخشري في كتاب «ربيع الأبرار»، وغيره، وقال ابن قتيبة في كتاب «المعارف»: إن أم علي زين العابدين سندية، يقال لها: سلامة، ويقال لها: غزالة.

*** روايته للحديث:**

روى علي زين العابدين الحديث عن أبيه الحسين، وابن عباس، وأبي هريرة، وعائشة، وصفية بنت حيي، وأم سلمة، وغير هؤلاء، وروى عنه طاوس بن كيسان، وهو من أقرانه، والزهري، وغيره، وقال أبو بكر بن شيبة: أصح الأسانيد: الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي بن أبي طالب.

*** فقهه:**

قال الزهري: ما رأيت أحداً أفقه من علي بن الحسين، ولكنه كان قليل الحديث.

*** تقواه وورعه:**

قال سعيد بن المسيب: ما رأيت أورع من علي بن الحسين، وقال مالك ابن أنس: لقد أحرم علي بن الحسين، فلما أراد أن يقول: لبيك، قالها، فأغمي عليه حتى سقط من أعلى ناقته. وروي أنه قال: أخشى أن أقول: لبيك، فيقول: لا لبيك. وقال مالك: إنه كان يصلي في كل يوم وليلة مئات الركعات إلى أن مات.

وسمي زين العابدين؛ لكثرة عبادته، ولم يكن هذا اللقب من الألقاب التي يعطيها الآباء والأمهات لأبنائهم عند ولادتهم، فيسمونه زين العابدين، فيعيش وهو تارك الصلاة، أو ناصر الدين، وهو أكبر معول لتقويض أركانه.

*** سخاؤه وكرمه:**

قال علي بن الحسين: إني لأستحي الله أن أرى الأخ من إخواني، فأسأل الله له الجنة، وأبخل عليه بالدنيا. ويروى: أنه قاسم الله ماله مرتين.

*** إخفاؤه الصدقات:**

قال محمد بن إسحاق: كان ناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين، فقدوا ما كانوا يؤتون به من الليل.

وقال جرير بن المغيرة: كان علي بن الحسين يُبخَّل «ينسب إلى البخل»، فلما مات، وجدوه يعول مئة أهل بيت بالمدينة، وكان ﷺ يحمل جراب الخبز على ظهره، فيتصدق به، ويقول: إن صدقة الليل تطفىء غضب الرب.

*** تعففه وزهده:**

روى نافع عن علي بن الحسين: أنه قال: ما أكلت بقرابتي من رسول الله ﷺ شيئاً قط. وقال جويرة بن أسماء: ما أكل علي بن الحسين بقرابته من رسول الله ﷺ درهماً قط؛ أي: أنه لا يتوسل إلى التحصيل على مال بقرابته إلى النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

*** برّه بأمه:**

قيل لعلي بن الحسين: إنك أبر الناس بأمك، ولسنا نراك تأكل معها في صحفة! فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى ما تسبق إليه عينها، فأكون قد عققتها. وكثير من الناس غافلون عن حقوق الأمهات، وناسون لما كابدته أمهاتهم في حملهم ووضعهم وتربيتهم من المشاق.

*** إجلاله للشيخين:**

قال مالك: قال نافع بن جبير بن مطعم لعلي بن الحسين: إنك تجالس أقواماً، كيف كانت منزلة أبي بكر وعمر من رسول الله ﷺ؟ فأشار بيده إلى قبريهما، وقال: منزلتهما منه الساعة؛ أي: إن منزلتهما في حياته من القرب

هي منزلتهما منه الآن، وكذلك كان الأئمة من آل البيت يجلون الشيخين، ويقدرونهما قدرهما.

*** تواضعه:**

قال مالك: قال نافع بن جبير بن مطعم لعلي بن الحسين: إنك تجالس أقواماً دوناً، فقال: إني أجالس من أنتفع بمجالسته في ديني.

*** كراهته في المبالغة في الثناء عليه:**

جاء قوم عليَّ بن الحسين، فأثنوا عليه، فقال: ما أكذبكم وأجرأكم على الله! نحن من صالحي قومنا، وحسبنا أن نكون من صالحي قومنا. وقد شاع بين الناس اليوم الغلو في مديح ذوي الوجاهة أو المال، حتى إن من لم يمدح، أو وقف في مدحه عند الحقيقة، عدّوه جافياً، وغير عارف بآداب مجالسة من يسمونهم: الكبراء من الناس.

*** حلمه:**

استطال رجل على زين العابدين، فأغضى عنه، فقال له الرجل: إياك أعني، فقال له زين العابدين: وعنك أغضي.

وتكلم فيه رجل افترى عليه، فقال له: إن كنتُ كما قلتَ، فأستغفر الله، وإن لم أكن كما قلتَ، فالله يغفر لك.

*** نجدته:**

عندما قام أهل المدينة على يزيد بن معاوية، وأخرجوا من كان في المدينة من بني أمية، وكان من بينهم مروان بن الحكم، طلب مروان من بعض رجال المدينة أن يضموا إليه أهله وثقله، ففعل، ووجههم زين العابدين إلى الطائف، ومعهم ابناه: عبدالله، ومحمد.

* فضله :

قال الزهري : ما رأيت قرشياً أفضل من علي بن الحسين .

وقال مالك : لم يكن في أهل بيت رسول الله ﷺ مثل علي بن الحسين .

وقال علي بن هاشم : ما رأيت هاشمياً أفضل منه .

* حكمه ومواعظه :

قال زين العابدين لابنه وهو يعظه : يا بني! اصبر على النائبة، ولا تتعرض للحقوق، ولا تجب أخاك إلى شيء ضرره أعظم من منفعته له .

وقال : الناس من بين مغمور بالجهل، ومفتون بالعجب، ومعدول بالهوى عن التثبت، ومصروف بسوء العادة عن تفضيل التعلم .

وقال : إن لله عباداً عبدوه رهبة، فتلك عبادة العبيد، وآخرين عبدوه رغبة، فتلك عبادة التجار، وآخرين عبدوه شكراً، فتلك عبادة الأحرار .

* شعره :

يروى أن أخاه الحسن رضي الله عنه عاتبه في امرأته، فقال :

لعمرك إنني لأحب داراً ... تحل بها سكينة والرباب

أحبهما وأبذل كل مالي ... وليس للائمي عندي عتاب

ونسب إليه الجاحظ ما يأتي :

الموت خير من ركوب العار ... والعار خير من دخول النار

والله من هذا وهذا جاري

* وفاته رضي الله عنه :

توفي علي زين العابدين بالمدينة المنورة سنة اثنتين، أو أربع وتسعين،

ودفن بالبقيع في قبر عمه الحسن بن علي في القبة التي بها قبر العباس رضي الله عنهم، وأولاد علي زين العابدين: عبدالله، ومحمد، وزيد، وليس للحسين عقب إلا من ولده علي زين العابدين.

هذه صحيفة من سيرة رجل من عظماء آل البيت نعرضها على حضراتكم، وفي سيرة العظماء عبرة وأسوة لأولي الألباب.






محمَّد الباقر وزيد(١)

اقترحت عليَّ لجنة المحاضرات لشركة السيارات الشرقية والدقهلية في هذه السنة إلقاء كلمة في موضوع يتصل بسيدنا الحسين، فبدا لي أن أجعلها في الحديث عن حفيديه: محمد، وزيد ابني علي زين العابدين بن الحسين، وفي سيرة العظماء عبرة لمن يريد أن يكون عظيماً في علمه، أو في شرفه وسمو همه، أو في المسارعة إلى عمل الخير ما استطاع.

*** محمد الباقر:**

هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وأمه أم عبدالله بنت الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، فنسبه من جهتي أبيه وأمه يتصل بعلي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء بنتِ رسول الله ﷺ.

ولد محمد في المدينة المنورة في صفر سنة ست أو سبع وخمسين، وتلقى الحديث وعلوم الدين عن أبيه علي زين العابدين، وجديه الحسن والحسين، وعم أبيه محمد بن الحنفية، وروى الحديث عن ابن عمر، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وأنس، وسعيد بن المسيب.

وهو معدود في صفوة المحدثين الصادقين فيما يروون، قال ابن سعد:

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزآن الأول والثاني من المجلد السادس عشر.

كان محمد ثقة كثير الحديث، وقال العجلي: محمد تابعي ثقة.

وكان محمد الباقر معدوداً من كبار الفقهاء، قال صاحب «الإرشاد»: لم يظهر عن أحد من ولد الحسن والحسين من علم الدين والسنن، وعلم القرآن، والسير، وفنون الأدب ما ظهر عن أبي جعفر الباقر.

وذكره الإمام النسائي في فقهاء أهل المدينة من التابعين.

وقال عبدالله بن عطاء: ما رأيت العلماء عند أحد أصغر منهم علماً عند الباقر.

ولقب بالباقر من قولهم: بقر العلم: أوسعه، قال صاحب «القاموس»: والباقر محمد بن علي بن الحسين ﷺ؛ لتبحره في العلم.

وفيه يقول الشاعر:

يا باقر العلم لأهل التقى وخير من لبى على الأجبل

وقال مالك بن أعين الجهني يمدحه:

إذا طلبت الناس علم القرآ ن كانت قريش عليه عيالا

وتلقى عن الباقر الحديث جماعة من كبار أئمة الحديث، مثل: الإمام الزهري، والإمام الأوزاعي، وربيعة، وابن جريج، وعمر بن دينار.

وللباقر بعد منزلة الفقه والعلم منزلة فائقة في الفضل والاجتهاد في العبادة، والدعوة إلى الله. قال محمد بن المنكدر: ما رأيت أحداً يفضل علي ابن الحسين، حتى رأيت ابنه محمداً؛ أردت أن أعظه، فوعظني.

وللباقر مواعظ بالغة، وحكم رائعة، ومن هذه المواعظ والحكم قوله لابنه: «إياك والكسل والضجر؛ فإنهما مفتاح كل خبيثة، فإنك إذا كسلت، لم تؤد حقاً، وإن ضجرت، لم تصبر على حق». وقوله: «أشد الإيمان ثلاثة:

ذكر الله على كل حال، وإنصافك من نفسك، ومواساة الأخ في المال».
وقوله: «ما دخل قلب عبد شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدره، أو أكثر منه». وقوله: «ليس الأخ أخاً يرعاك غنياً، ويتركك فقيراً». وقوله: «الغنى والعز يجولان في قلب المؤمن، فإذا وصلا إلى مكان فيه التوكل، أوطناه».

ومن حكم الباقر: «اعرف المودة في قلب أخيك مما له في قلبك».

وإلى معنى هذه الحكمة يشير قول الشاعر:

سلوا عن مودات الرجال قلوبكم ... فتلك شهود لم تكن تقبل الرشا
ولا تسألوا عنها العيون فربما ... أقرت بشيء لم يكن داخل الحشا

وكان محمد الباقر يحترم الشيخين أبا بكر وعمر، ويعترف بإمامتهما.

قال سالم أبو حفصة: سألت أبا جعفر عن أبي بكر وعمر، فقال لي: يا سالم! تولهما، وأبرأ من عدوهما؛ فإنهما كانا إمامي هدى.

وروى عنه أنه قال: ما أدركت أحداً من أهل بيتي إلا وهو يتولاهما.

وروى عنه أنه قال: من لم يعرف فضل أبي بكر وعمر، فقد جهل السنة.

وتوفى الباقر سنة ١١٣ ـ رحمه الله ـ بالحميمة، وهي قرية بصقع الشام في طريق المدينة، ونقل إلى المدينة، ودفنه بالبقيع في القبر الذي دفن فيه أبوه زين العابدين، وعم أبيه الحسن بن علي.

ومحمد الباقر هو الإمام الخامس من الأئمة الاثني عشر الذين هم موضع عقيدة الشيعة الإمامية، وبهذا سمو: الاثني عشرية، وهؤلاء الأئمة هم علي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وعلي زين العابدين، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، والحسن بن علي العسكري، ومحمد بن الحسن العسكري،

وهذا الإمام الأخير في مذهب الشيعة هو المهدي المنتظر.

وهناك طائفة من الشيعة يقال لهم: الباقرية يقولون: الإمامة انتقلت من علي بن أبي طالب وأولاده إلى محمد الباقر، وانتهت الإمامة عنده، وإنه لم يمت، ولكنه غائب، وهو المهدي المنتظر.

وأهل السنة يعتقدون في هؤلاء الأئمة العلم والتقوى، ولكنهم لا يعتقدون كما يعتقد بعض الفرق أنهم معصومون عن جميع الذنوب وسائر النقائص، إلى ما يتبع هذا من الآراء.

*** زيد بن علي:**

نسب زيد بن علي من جهة أبيه هو نسب أخيه محمد الباقر، وأما نسبه من جهة الأم، فإن زيداً أمه كانت أم ولد؛ أي: أمة، ولم يقصر به ذلك عن أن يكون في أعلى مرتبة من الفضل، قال له هشام بن عبد الملك: أنت الذي تنازعك نفسك في الخلافة، وأنت ابن أمة؟! فقال: يا أمير المؤمنين! إن لك جواباً إن أحببت أجبتك به، وإن أحببت أمسكت عنك، قال: لا، بل أجب، قال: إن الأمهات لا يقنعون بالرجال عن الغايات، وقد كانت أم إسماعيل أمة لأم إسحاق، فلم يمنعه ذلك أن ابتعثه الله نبياً، وجعله للعرب أباً، وأخرج من صلبه خير البشر محمداً ﷺ، فتقول لي كذا، وأنا ابن فاطمة، وابن علي!.

ولد زيد بالمدينة سنة ٧٥، فيكون أصغر سناً من أخيه الباقر بنحو تسع عشرة سنة، وهنالك نشأ، وكانت المدينة لذلك العهد زاخرة بعلوم الشريعة، وفي ذلك العهد ظهر كثير من أعاظم الفقهاء، مثل: سعيد بن المسيب، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبدالله بن عمر،

والقاسم بن محمد، وخارجة، وكان هؤلاء الفقهاء من العلماء الواقفين على أسرار الشريعة، لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ولم يؤثر عن أحد منهم أن أفتى في شرع الله بما يوافق هوى السياسة؛ رهبة من سطوتها، أو طمعاً في الوجاهة لدى أربابها، فيكون زيد بن علي قد شب في بيئة علمية تغمرها الآداب الرفيعة، وتنبت فيها الأعمال الصالحة نباتاً حسناً.

وكان زيد من كبار المحدثين، فقد روى عن أبيه زين العابدين، وأخيه محمد الباقر، وعن عروة بن الزبير، وعبدالله بن رافع، وغيرهم من أجلة التابعين.

وهو معدود في مرتبة المحدثين الصادقين فيما يروون، وقد روى عنه جماعة من أئمة الحديث، مثل: الزهري، وشعبة، والأعمش، وابن أبي الزناد.

وكان زيد فقيهاً مجتهداً، ولقيه الإمام أبو حنيفة، وأخذ عنه، وأثنى عليه.

وكان زيد يقول الشعر، ومن شعره الأبيات التي أرسلها إلى هشام بن عبد الملك بعد ذلك المجلس الذي قال له فيه: أتترصد للخلافة، وأنت ابن أمة؟! وهي:

مهلاً بني عمنا عن نحت أثلتنا ... سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم ... وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا

فالله يعلم أنا لا نحبكم ... ولا نلومكم ألا تحبونا

وكان زيد ـ مع رسوخه في علوم الشريعة ـ تسمو به همته إلى تولي الخلافة؛ إذ كان ينكر على هشام سوء سياسته، ويراها شراً من سياسة يزيد، ويروى أنه ـ أي: زيداً ـ دخل مسجد رسول الله ﷺ في يوم حار، فرأى سعد

ابن إبراهيم في جماعة من القرشيين، فحادثهم في سياسة هشام، حتى قال لهم: «وأنا أشهد أن يزيد ليس شراً من هشام، فمالكم!»، ولما انصرف، قال سعد لأصحابه: مدة حياة هذا قصيرة.

وشعر هشام من زيد هذا الطموح، مضافاً إلى عبقرية زيد، واستجماعه لخصال الفضل، وكان زيد بالكوفة، فأرسل هشام إلى عامله على الكوفة، وهو يوسف بن عمر النقعي، يأمره بأن يوجه زيداً إلى الحجاز، فغادر زيد الكوفة إلى الحجاز، ولما بلغ «العزيب» لحقته الشيعة، وأخبروه أن الناس مجمعة عليه، ولم يزالوا يلحفون عليه حتى رجع، وأقام بالكوفة سنة يبايعه الناس على الخلافة خفية، وبايعه جماعة من أعلام الفقهاء، مثل: منصور بن المغنمي، وعبد الرحمن بن أبي ليلى، وابن شبرمة، وغيرهم، ويقال: إن أبا حنيفة ﷺ أرسل إليه ثلاثين ألف درهم، وحث الناس على مناصرته.

وظهر زيد معلناً أمره في محرم سنة إحدى أو اثنتين وعشرين ومئة، ونشبت الحرب بينه وبين يوسف بن عمر عامل هشام على الكوفة، ولم تدم الحرب أكثر من ثلاثة أيام، وأدرك الفشل أتباع زيد، فتفرقوا عنه، وكانت العاقبة أن أصاب زيداً سهم في جبهته، فحمله أصحابه، ومات من هذه الإصابة كريماً شهيداً ـ تغمده الله برحمته ـ، وكان يتمثل يوم قتل بقول القائل:

أذل الحياة وعز الممات ... وكلاً أراه طعاماً وبيلا

فإن كان لابد من واحد ... فسيروا إلى الموت سيراً جميلا

وصُلب زيد بعد موته حيناً، وإليه يشير أبو الحسن محمد بن عمران الأنباري بقوله من القصيدة التي رثى بها الوزير ابن بقية، وقد صلب هذا

الوزير أيضاً بعد قتله:

ركبت مطية من قبل زيد   علاها في السنين الماضيات
وتلك فضيلة فيها تأس   تباعد عنك تعيير العدات
ولم أر قبل جذعك قط جذعاً   تمكن من عناق المكرمات

*** احترام زيد للشيخين أبي بكر وعمر:**

لما أخذ الناس يبايعون زيداً بالخلافة، جاءته طائفة يطلبون منه أن يتبرأ من أبي بكر وعمر، فقال: لا، بل أتبرأ ممن تبرأ منهما، فقالوا: إذاً نرفضك، فسموا: رافضة، وسميت شيعته: زيدية.

فزيد بن علي هو الذي ينسب إليه من فرق الشيعة فرقة الزيدية، ومذهبهم قائم على صحة إمامة الشيخين أبي بكر وعمر، واحترامهما، ولكنهم يقولون: إن علي بن أبي طالب أفضل منهما، وأحق بالخلافة، وزعيم الزيدية اليوم هو الإمام يحيى ملك اليمن.

ونحن نوافق الزيدية في الاعتقاد بفضل زيد وعلمه وجلالة قدره، ولكننا نعتقد أن أبا بكر وعمر قد توليا الخلافة بحق، كما أن الإمام علي بن أبي طالب قد تولاها بعد عثمان بحق.

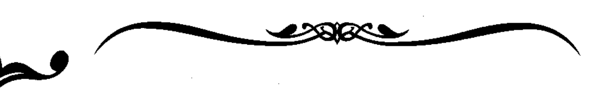
*** مقارنة بين الاخوان:**

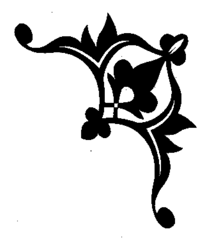
كان كل من حفيدي الحسين عظيماً في علمه، عظيماً في خلقه، عظيماً في تقواه، ولكن محمداً كان يميل إلى السلم، ويصبر نفسه على السكون في ظروف يرى فيها بعض ما يكره، وقد ذكروا في سيرته: أنه كان يعرض عن الجدل والخصومات، فمعظم فضله في الانقطاع للعلم، والتزود من الأعمال الصالحة، أما زيد، فكان ـ مع علمه وتقواه ـ يخاطر بنفسه، ويأخذ

بالصراحة في أقواله، ولا يتباطأ عن مناهضة من يراهم على فساد، وقد رأيتم كيف كان يخاطب هشام بن عبد الملك بالكلمات اللاذعة، وكيف كان يطمح إلى أن يكون له سلطان يبتغيه وسيلة إلى إصلاح حال الأمة، وإعادة ما ضاع على أيدي بعض أمراء بني أمية من العدل.

فنحن لا نلوم الباقر على عدم تعرضه لأمر السياسة، فقد يكون الباقر قد عرف أنه لا يصل بمناهضتها إلى عاقبة راضية، ولا ننكر على زيد مخاطرته في سبيل الإصلاح إذا أخذ بالعزيمة، وإذا قال بعض الناس: ليس المخاطر بمحمود وإن سلم، وجد من يقول له: ليس المخاطر في سبيل الإصلاح بمذموم وإن لم يسلم.







نظرةٌ في
حياة عمر بن عبد العزيز[1]

إن من الأسباب التي جعلت كثيراً من شبابنا يسرفون في إكبار رجال أوربا، ولا يرفعون رؤوسهم فخراً بعظماء الشرق: أنهم لم يدرسوا تاريخ عظمائنا بعناية وروية وإنصاف.

وذلك ما دعا رجال جمعية الهداية الإسلامية إلى أن توجه همتها إلى إلقاء محاضرات في إحياء ذكر رجال نبغوا في العلم، أو برعوا في السياسة، أو كانوا مُثلاً كاملة في الأخلاق والآداب.

ومن الرجال الذين لا يسمح بهم الدهر إلا قليلاً: عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، ومحاضرتنا الليلة في مقتبسات من سيرته الغراء.

*** تمهيد:**

التحق الرسول الأعظم ـ صلوات الله عليه ـ بالرفيق الأعلى وقد بلّغ للناس شريعة سمحة، وأقام للدولة الإسلامية أساساً محكماً، فقام بالأمر بعده الخلفاء الراشدون، فساروا على أثره في الزهد، والعدل في السياسة، وإيثار الحق على الخلق، وإعلاء كلمة الله بكل ما لديهم من قوة، ثم ولي

---

(١) محاضرة الإمام في دار جمعية «الهداية الإسلامية»، ونشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثالث من المجلد السابع.

بعدهم رجال فقدت معهم الخلافة شيئاً مما كانت تعهده في أولئك الخلفاء الراشدين من الزهد في الدنيا، والاستقامة على ما أمر الله في كل حال، وشعر الناس بفرق جليّ بين عهد الخلافة الرشيدة، والخلافة التي أخذت بعض أساليب الملك المكروهة، ومازالت هذه الأساليب الخاطئة تتزايد حتى كادت تذهب بمعظم ما أرشد إليه الإسلام من عدل وحرية ومساواة.

وربما وقع في بعض الأوهام أن القسوة وأبهة الملك اللتين ظهر بهما بعض الخلفاء، أو بعض وزرائهم، أو عمالهم أمر يقتضيه حال الناس، وما طرأ على أخلاقهم من فساد، ويسوقون على هذا أنه قيل للحجاج: لم لا تكون كعمر بن الخطاب؟ فقال: تبذَّروا، أتعمّرْ لكم؛ «أي: كونوا كأبي ذر الغفاري، أكن لكم كعمر بن الخطاب».

وقد أظهر الله في خلال ذلك العهد ـ الذي صارت فيه الخلافة إلى ملك عضوض ـ فتى دل بسيرته الماجدة الفاخرة على أن في استطاعة كل أمير نير البصيرة، طيب السريرة أن يقيم الشريعة، ويبسط ظلال العدل، ويرفع راية العلم، ويعمر السبل بالأمن، ويجعل الناس في نعيم من العيش، وإن وجد الأهواء في تشعب، والقلوب في تفرق، والأخلاق في فساد، وذلك الفتى هو عمر بن عبد العزيز.

*** نسب عمر بن عبد العزيز:**

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وفي عبد مناف يلتقي نسبه بنسب رسول الله ﷺ، وجدُّه مروان بن الحكم هو الذي جلس على عرش الخلافة بعد وفاة معاوية بن يزيد ابن معاوية سنة ٦٤، وتوفي سنة ٦٥ بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه عبد الملك.

ووالد عمر، وهو عبد العزيز بن مروان، كان مروان قد استعمله على مصر سنة ٦٥، وبقي في ولايتها إلى أن توفي سنة ٨٥.

وأما أمه، فهي أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ﷺ.

*** نشأته:**

ولد عمر بن عبد العزيز سنة ٦١ هجرية بالمدينة المنورة[1]، وشبَّ في نعيم ورفاهية من العيش، فقد كان أبوه عبد العزيز أميراً على مصر، وعمه عبد الملك تخفق راية خلافته في الشرق والغرب.

حفظ القرآن الكريم، وتلقى علوم الدين من أفاضل الصحابة، مثل: عبادة بن الصامت، وعم أمه عبدالله بن عمر، ثم عن أفاضل التابعين؛ مثل: سعيد بن المسيب، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وروى عن عبيدالله هذا أكثر مما روى عن غيره من أهل العلم، ومن شعر عبيدالله يخاطب عمر ابن عبد العزيز:

أينْ لي، فكن مثلي أو ابتغ صاحباً ... كمثلك إني مبتغ صاحباً مثلي

عزيزٌ إخائي، لا ينال مودتي ... من القوم إلا مسلم كامل العقل

وما يلبث الإخوان أن يتفوقوا ... إذا لم يؤلف زوج شكل إلى شكل

وضم إلى علوم الدين علوم اللغة العربية وآدابها، قال ﷺ: لقد رأيتني وأنا بالمدينة غلام مع الغلمان، ثم تاقت نفسي إلى العلم، إلى العربية، فالشعر، فأصبت منه حاجتي.

وكان لاتصاله بخاله (أي: عم أمه) عبدالله بن عمر أثر في استقامته،

---

(١) وقيل: ولد بمصر، وسترى أن والده إنما تولى إمارة مصر سنة ٦٥.

فقد كان يأتي والدته أم عاصم، ويقول لها: يا أمّة! أنا أحب أن أكون مثل خالي، يريد: عبدالله بن عمر، فتقول له على وجه الاستبعاد: أنت تكون مثل خالك؟!

ولما تولى أبوه عبد العزيز إمارة مصر، كتب إلى زوجته أم عاصم أن تقدم عليه بولدها عمر، فاستأذنت عمها عبدالله بن عمر في الخروج إلى مصر، فقال لها: يا بنية أخي! هو زوجك، فالحقي به، ولما أزمعت السفر، قال لها: اتركي هذا الغلام (يعني: عمر بن عبد العزيز) عندنا؛ فإنه أشبهكم بنا، فامتثلت أمره، وأبقته عنده، وحين وصلت إلى مصر، سألها عبد العزيز عن ابنه عمر، فأخبرته بأنها خلفته بالمدينة إجابة لرغبة خاله عبدالله بن عمر، فسر عبد العزيز بما فعلت، وكتب بذلك إلى أخيه عبد الملك، فأمر عبد الملك بأن يجري لعمر بالمدينة ألف دينار في كل شهر.

طلب عمر ﷺ العلم حتى بلغ رتبة الاجتهاد، قال ميمون بن مهران: ما كانت العلماء عند عمر إلا تلامذة.

*** ولايته إمارة المدينة المنورة:**

تولى عمر ﷺ إمارة المدينة في عهد الوليد بن عبد الملك سنة ٨٧، فسار في ولايته بعدل ويقظة، ومن الطرق التي استعان بها على سياسته الرشيدة: أنه دعا عشرة من أفاضل علماء المدينة، وقال لهم: دعوتكم لأمر تؤجرون فيه، وتكونون فيه أعواناً على الحق، إن رأيتم أحداً يتعدى، أو بلغكم عن عامل لي ظُلامة، فأحرج بالله على أحد بلغه ذلك إلا أبلغني، فدعوا له، وافترقوا.

يدعو عمر بن عبد العزيز العلماء أن يكونوا أنصاره على الحق، وأن

يدلوه على الظالمين من عماله، وهذا من شواهد نصحه فيما تولاه من الإمارة، وكذلك يكون حال من يتقلد الولاية ليعمل صالحاً، أما من يتقلدها للمباهاة، واتباع الشهوات، وطول الباع في اضطهاد الضعفاء، فلا يرتاح له بال إلا أن يضع على أفواه دعاة الإصلاح كمائم، أو ينفيهم من الأرض.

*** ولايته الخلافة:**

تولى الخلافة بعهد من سليمان بن عبد الملك، ومبايعة الناس له عند وفاة سليمان سنة ٩٩، وكان يقول للرجل: بايعني بلا عهد ولا ميثاق، تطيعني ما أطعت الله، فإن عصيت الله، فلا طاعة لي عليك، فيبايعه على ذلك.

*** تخليه عن أبهة الملك:**

لما ولي الخلافة، قام الناس بين يديه، فنهاهم عن ذلك، وقال: يا معشر الناس! إن تقوموا نقم، وإن نقعدوا تقعد، فإنما يقوم الناس لرب العالمين. وأذن للمظلومين أن يدخلوا عليه بغير إذن، وقال: ألا إنه لا إذن على مظلوم دوني، وأنا معول كل مظلوم.

ولما فرغ من دفن سليمان بن عبد الملك، قدّموا إليه مراكب الخلافة: البراذين، والخيل، والبغال، فقال: ما هذا؟ قالوا: مراكب الخلافة. فقال: دابتي أوفقُ لي، فركب بغلته، فجاء صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة، فقال: تنحَّ عني، مالي ولك! إنما أنا رجل من المسلمين.

*** عدم حرصه على الخلافة:**

كان عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك حين توفي سليمان غائباً، وحين علم بوفاته، أخذ البيعة لنفسه، وبلغه بعد ذلك مبايعة الناس لعمر بن عبد العزيز بعهد سليمان، فقدم دمشق، واعتذر لعمر بأنه لم يبلغه أن الخليفة

عهد إلى أحد، فقال له عمر: «والله! لو بويعتَ بالأمر ما نازعتك». وعدم الحرص على الولاية يعين الرجل على السير فيها باستقامة دون أن يخشى سخط شخص أو رهط من الناس، وإن بلغوا منتهى الوجاهة، أو عرفوا من وسائل الكيد ما لم يعرفه أحد من قبل.

*** عدم اكتراثه بمديح الشعراء:**

لما تولى الخلافة، حضر الشعراء ببابه؛ ظناً منهم أنه من أولئك الذي تأخذهم النشوة إذا مُدحوا، فيعطوا المادحين من بيت مال المسلمين بغير حساب، فمكثوا أشهراً لا يأذن لأحد منهم بالدخول، ثم أذن لجرير، فأنشد بين يديه قصيدته التي يقول فيها:

زرت الخليفة من أرض على قدر ... كما أتى ربه موسى على قدر

إنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطر

فقال له عمر: لا أرى لك في شيء من بيت مال المسلمين حقاً، فقال جرير: لقد فرض الله لي فيه حقاً، قال: ويحك! ما حقك؟ قال: ابن سبيل أتاك من شقة بعيدة، فدعا بعشرين ديناراً فضلت من عطائه، فقال: هذه فضلت من عطائي، ولو فضل أكثر من هذا، لأعطيتك، فخذها، فإن شئت فاحمد، وإن شئت فذم، فخرج جرير وهو يقول:

رأيت رقى الشيطان لا تستفزُّهُ ... وقد كان شيطاني من الجن راقيا

كان ـ رحمه الله ـ عامر القلب بالتقوى، واثقاً من أنه سيسير في طريق العدل ما استطاع، ومن كان هذا شأنه، لم يقم للشعراء وأمثالهم وزناً يبلغ به أن يجازيهم عن المديح، أو يتقي هجاءهم بشيء من أموال المسلمين. وكان يرق للشاعر، ويعطيه متى علم أنه في حاجة وبؤس، دخل عليه نُصَيب

الشاعر، وقال له: يا أمير المؤمنين! كبرت سني، ودق عظمي، وبليت ببنيّات نفضتُ عليهن من لوني، فكسدن عليّ، فرقّ له، ووصله بعطاء.

* **مبادرته برد المظالم:**

ما يفعله رجال الحكومات قد يكون على وجه الاجتهاد للمصلحة؛ كالأحكام التي يصدرها القضاة في القضايا الشخصية، فهذه لا يصح لمن أتى بعدهم أن ينقضها، ولو ظهر له أنهم كانوا مخطئين في اجتهادهم، إلا أن يجيء الحكم مخالفاً لصريح الكتاب أو السنة أو القواعد القطعية، فإنه ينقض في كل حال.

أما ما يفعلونه استبداداً وعدواناً، فهذا ما يجب على من أتى بعدهم أن ينظر في شأنه، ويرده عليهم بكل قوة، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز، فإنه بعد أن دفن سليمان بن عبد الملك، ذهب يطلب مقيلاً ليستريح من تعب السهر قليلاً، فقال له ابنه عبد الملك: أتقيل ولا ترد المظالم؟ فقال: أي بني! سهرت البارحة في أمر عمك سليمان، فإذا صليت الظهر، رددت المظالم، فقال له ابنه: من لك أن تعيش إلى الظهر؟! فخرج ولم يَقِل، وأمر مناديه أن ينادي: ألا من كانت له مظلمة، فليرفعها.

ثم كتب إلى عماله يأمرهم برد المظالم إلى أصحابها من غير تباطؤ في ردّها، أو يراجعه في شأنها.

* **إجراؤه لقاعدة المساواة:**

كان الخلفاء قبله يؤثرون بني أمية بكثرة العطاء، ولما تولى عمر، سوّاهم في العطاء بغيرهم، فبعثوا إليه رجلاً ليكلمه في شأنهم، فدخل عليه، وخاطبه في ذلك، فأجابه عمر بجواب دله فيه على أن بني أمية وسائر المسلمين في

نظره سواء، فخرج الرجل إليهم، وقال: يا معشر بني أمية! عمدتم إلى صاحبكم (يعني: عبد العزيز بن مروان)، فزوجتموه بنت ابن عمر (يعني: عاصماً)، فجاءتكم بعمر بن الخطاب ملفوفاً في ثيابه، فلا تلوموا إلا أنفسكم.

ويدلكم على رسوخه في فهم ما جاء به الإسلام من المساواة: أن رجلاً دخل على سليمان بن عبد الملك، وشتمه في مجلسه، وكان عمر بن عبد العزيز في المجلس، فقال سليمان لعمر: ماذا ترى عليه يا أبا حفص؟ فقال: أرى عليه أن تشتمه كما شتمك، وتشتم أباه كما شتم أباك.

*** عدم قبوله للهدية بعد الولاية:**

لما كان بعض الولاة يتناولون الرشوة باسم الهدية، صرح هذا الخليفة بأن الهدية للوالي رشوة لا محالة؛ حتى يطهر دولته من نجاسة الارتشاء، ويقطع أسبابها.

ورد في سيرته: أنه اشتهى مرة تفاحاً، فقال: لو كان لنا شيء من التفاح؛ فإنه طيب الريح، طيب الطعم، فقام رجل من أقاربه، فأهدى إليه تفاحاً، فرده عليه، فقيل له: إن رسول الله ﷺ كان يأكل الهدية؛ فقال: إن الهدية كانت للنبي ﷺ هدية، وهي لنا رشوة.

وإنما كانت الهدية للنبي ﷺ هدية؛ لأنه معصوم من الجور، فلا يعقل أن يكون لها أثر في تصرفاته العامة، أو فيما يفصل فيه من الأحكام.

*** عدم توليته لمن كان عاملاً لظالم غشوم:**

لا يخلو من تولى عملاً لظالم غشوم أن يجري على يده شيء قليل أو كثير من الظلم، ومن اعتاد على الظلم، لا يصلح للعمل في دولة العدل،

ولذلك كان عمر ﷺ لا يستعمل من كان عاملاً لنحو الحجاج، استعمل مرة عاملاً، فبلغه أنه عمل للحجاج، فعزله، فأتاه يعتذر إليه، وقال: لم أعمل للحجاج إلا قليلاً، فقال له: حسبك من صحبة شر يوم أو بعض يوم.

*** عنايته بنشر العلم:**

بصر عمر بمكان علوم الدين من إصلاح الأخلاق، وتطهير السرائر، وتنظيم الاجتماع، بل بصر بمكانها من الفلاح في الدنيا، والسعادة في الأخرى، فعني بنشرها بين أهل الحضر والبدو، فإنا نقرأ في سيرته: أنه أرسل عشرة من فضلاء التابعين؛ ليعلموا البربر بالمغرب القرآن، ويفقهوهم في أمور الدين.

ونقرأ في تاريخه: أنه بعث يزيد بن أبي مالك، والحارث بن محمد إلى البادية؛ ليعلما الناس السنّة، وأجرى عليهما رزقاً كافياً، فقبل يزيد الرزق، ولم يقبل الحارث، وقال: ما كنت لآخذ على علم علمنيه الله أجراً، فبلغ ذلك عمر، فقال: ما نعلم بما صنع يزيد بأساً، وأكثر اللهُ فينا من أمثال الحارث.

وفي كتاب له إلى أمراء الجند:

«ومُرْ أهل العلم والفقه من جندك، فلينشروا ما علمهم الله من ذلك، وليتحدثوا به في مساجدهم».

وفي كتاب له إلى والي حمص:

انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مئة دينار، يستعينون بها على ما هم عليه من بيت المسلمين، حين يأتيك كتابي هذا، وإن خير الخير أعجله. والسلام.

وكذلك يجب على كل حكومة إسلامية أن تعنى بعلوم الدين، وتعطيها

حقها من التعليم، والآباء الذين يستطيعون الوسيلة إلى أن يكون أبناؤهم على تربية دينية صادقة، ولم يفعلوا، إنما يحاربون الله في أرضه، ويكثرون سواد الأرواح الخبيثة، والزائغون عن الحق أشد ضرراً من ذوات السموم القاتلة؛ ذلك لأنهم يفسدون القلوب، وذوات السموم تفسد الأجسام، وفساد القلوب أسوأ عاقبة من فساد الأجسام.

*** عدله في الرعية:**

الأمير العادل هو الذي يستوي في نظره القوي والضعيف، والقريب والبعيد، ولا يستقيم أمر أمة حتى يكون القابض على زمامه فعّالاً لما يراه الحق، ولا يكون لأولي القربى أثر في نفسه إلا أن يهيئ لهم عزماً صارماً يكف بأسهم، ويعلمهم كيف يحترمون حقوق غيرهم، وكذلك كان عمر ابن عبد العزيز.

وكان ﷺ كثيراً ما يركب، فيلقى الركبان، ويسألهم عن أخبار ما وراءهم من البلاد، خرج يوماً هو ومولاه مزاحم، فلقيهما راكب من أهل المدينة، وسألاه عن حال الناس بها، فقال: «إني تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور، والغني موفور، والعائل مجبور»، فسر عمر بذلك، وقال: «والله! لأن تكون البلدان كلها على هذه الصفة أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس».

بسط ظلال العدل، وأصبح الناس في كثير من النواحي على حال يسر، حتى لا يوجد من بينهم من يقبل الصدقة، قال يحيى بن سعيد: بعثني عمر ابن عبد العزيز على صدقات إفريقية، وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد بها فقيراً، ولم نجد من يأخذها مني، وقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس،

فاشتريت بها رقاباً، فأعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين.

* احترامه للعلماء المستقيمين:

لو فكرت في حال الولاة الذين يستخفون بمقامات أهل العلم، لرأيتهم بين ثلاثة رجال: رجل جاهل، والجاهل لا يعرف فضل العلم حتى يجل أهل العلم.

ورجل صغير النفس، عظيم في عينه المنصب، وأخذه التعاظم بالإثم؛ فتخيل أنه سيد من في الأرض، وأن مقامه أرفع من كل مقام.

ورجل قصير النظر، يحسب أن إجلاله لأحد من مرؤوسيه ـ وإن كان عزير العلم، رفيع القدر ـ يذهب بجانب من مهابته.

وكان عمر بن عبد العزيز غزير العلم، كبير الهمة، بعيد النظر، فلا جرم أن يقدر العلماء المستقيمين قدرهم، ويعينهم على الاحتفاظ؛ بكرامتهم حتى يكون لتعليمهم وإرشادهم ثمر رطب، ولا تحيا أمة أو ترقى في سماء المجد إلا أن يكون فيها علماء مخلصون محترمون.

أرسل عمر بن عبد العزيز أيام ولايته على المدينة إلى سعيد بن المسيب رسولاً يسأله عن مسألة، وكان سعيد لا يأتي أميراً ولا خليفة، فأخطأ الرسول، فقال له: الأمير يدعوك، فقام سعيد بن المسيب طاعة لولي الأمر، فلما دخل على عمر، قال له عمر: عزمت عليك يا أبا محمد إلا رجعت إلى مجلسك حتى يسألك رسولنا عن حاجتنا، فإنا لم نرسله يدعوك، وإنما أرسلناه يسألك، فأخطأ.

* قبوله للوعظ والنصيحة:

نجد في كتب الأدب والتاريخ مواعظ كثيرة، وخطباً تشتمل على نصائح

ألقيت بين يديه، فتلقاها بارتياح وقبول، بل كان ﷺ يدعو أهل العلم والصلاح إلى وعظه وإرشاده إلى ما فيه خير، وتحذيره مما لا خير فيه، ويكفي شاهداً لهذا: أنه قال لمزاحم مولاه: يا مزاحم! إن الولاة جعلوا العيون على العوام، وأنا أجعلك عيناً على نفسي، فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها، أو فعالاً لا تحبه، فعظني عنده، وانهني عنه.

*** امتلاؤه بخشية الله وتقواه:**

عدل لا يشوبه حيف، وحزم لا تحوم عليه غفلة، خصلتان لا يجتمعان لولي الأمر إلا أن يكون قلبه عامراً بخشية الله وإجلاله، ذلك أن التقوى تنير سبيل العدل، ومن لم يجعل الله له هذا النور، لا يلبث أن تخرج به الأهواء إلى ظلمات الجور، والتقوى تجعل ولي الأمر في يقظة، فلا يدعو الحال إلى مصلحة إلا أقامها، ولا ظهرت مفسدة إلا اقتلعها، وقطع أسبابها، وما تيسر لعمر بن عبد العزيز أن يسير في سياسة الأمة تلك السيرة القيمة إلا لأنه يخاف مقام ربه، ويذكر في كل حال أنه سيسأل عن كل ما قدمت يداه، قالت فاطمة بنت عبد الملك زوجته: «والله! ما رأيت أخوفَ لله من عمر، لقد كان يذكر الله في فراشه، فينتفض انتفاض العصفور من شدة الخوف، حتى نقول: ليصبحن الناس ولا خليفة لهم».

وكثيراً ما كان يخطب، فتنهال عبراته، فيتلقاها بطرف ردائه.

*** شرط الصحبة عنده:**

في الرؤساء من لا يرضى عن جليسه إلا أن يتزلف له بمدح مبالَغ فيه، أو ينحدر مع أهوائه أينما انحدرت. أما الرئيس العادل، فأحبُّ جلسائه إليه من يدله على مواطن الإصلاح، ويعينه على عمل الخير، أرشدنا إلى هذا

عمر بن عبد العزيز إذ قال لجلسائه:

«من صحبني منكم، فليصحبني على خصال: يدلني من العدل إلى ما لا أهتدي له، ويكون لي على الخير عوناً، ويبلغني حاجة من لا يستطيع إبلاغها، ولا يغتاب عندي أحداً، ويؤدي الأمانة التي حملها مني ومن الناس، فإذا كان كذلك، فحيّهل به، وإلا، فهو خارج من صحبتي، والدخول عليّ».

*** حزمه:**

الوقت نفيس، ومن لا يقدر قيمته، فقد يصرف جانباً منه في لهو، أو عمل لا يأتي بثمرة. والرجل الحازم من يحرص على أن لا يذهب شيء من وقته في غير جدوى، ويحرص على أن يقوم بكل عمل في وقته اللائق به، وتأخير بعض الأعمال عن وقتها إيثاراً للراحة، يوقعك في عناء؛ حيث يكون لكل وقت من أوقاتك الآتية عمل يختص به، ولا يسمع ذلك الوقت غيره.

ومن حزم عمر بن عبد العزيز ﷺ: أنه كان لا يؤخر عمل يومه إلى غده. قال له بعض إخوانه: يا أمير المؤمنين! لو ركبت فتروحت، قال: فمن يجزي عني عمل هذا اليوم؟ قالوا: تجزيه من الغد، قال: قد فَدَحني (شق عليَّ) عمل يوم واحد، فكيف إذا اجتمع عليَّ عمل يومين؟!.

*** تمسكه بالسنَّة، وكراهته للبدعة:**

كان ﷺ يتحرى السـنّة، ويعمل لإحيائهـا، ويكره البدعـة، ويعمل لإماتتها، ويدلكم على شهرة اقتدائه بالنبي ﷺ: أن أنس بن مالك قدم من العراق إلى المدينة يوم كان عمر أميرها، فكانت تعجبه صلاة عمر، وقال: ما صليت خلف إمام بعد رسول الله ﷺ أشبهَ صلاةً بصلاة رسول الله ﷺ من

إمامكم هذا.

ومن شواهد حرصه على إقامة السنن، وقتل البدع: قوله: «لو كان كل بدعة يميتها الله على يدي، وكل سنّة ينعشها الله على يدي، ببضعة من لحمي، حتى يأتي ذلك على آخر نفسي، كان في الله يسيراً».

وقال في خطبة خطبها على المنبر يوم الجمعة: «لولا أن أنعش سنَّة، أو أعمل بحق، ما أحببت أن أعيش فُواقاً[1]».

*** إنكاره التشاؤم:**

معروف أن الإسلام أبطل فيما أبطل من مزاعم العرب التشاؤم بنحو النجوم والطيور وغير ذلك، غير أن النفوس الضعيفة لا تثبت أمام خواطر السوء، وإنما يثبت أمامها، بل يسلم من خطراتها من كان إيمانه بأنه كفلق الصبح، وثقته به مالئة قلبه من أسفله إلى أعلاه، ومن هؤلاء المتوكلين على الله في كل ما يفعلون أو يقولون: عمر بن عبد العزيز، خرج عمر في بعض أسفاره من المدينة ومعه مولاه مزاحم، فنظر مزاحم، فإذا القمر في الدبران، قال: فكرهت أن أقول ذلك له، فقلت: ألا تنظر إلى القمر ما أحسن استواءه في هذه الليلة! فنظر عمر إلى القمر، وقال له: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر بالدبران! يا مزاحم! إنا لا نخرج بشمس ولا بقمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار.

*** زهده:**

إن سيرة نقية من كل مغمز كسيرة عمر بن عبد العزيز لا تنتظم إلا لمن

(١) الفُواق ـ بالضم ـ: ما بين الحلبتين من الوقت.

يؤثر الحياة الباقية على الحياة الدنيا، ولم يترك حب العمل الصالح لحب الزينة والملاذ في نفسه موضعاً، يكفي شاهداً على زهده في حطام الدنيا: أنه لم يخلف يوم مات سوى سبعة عشر ديناراً، كفّن منها بخمسة دنانير، واشتري له موضع ليقبر فيه بدينارين، وقسم الباقي على ورثته.

وقال له مَسلمة بن عبد الملك عند مرض الموت: قد تركت ولدك عيلة لا شيء لهم، فقال: والله! ما منعتهم حقاً هو لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم، ثم قال: بَنيَّ أحد رجلين: إما رجل يتقي الله؛ فسيجعل الله له مخرجاً، وإما رجل مكبّ على المعاصي، فإني لم أكن أقويه على معصية الله.

ولم يكن ﷺ ممن يضع الطعام على مائدته ألواناً، دخل غلام له على مولاته فاطمة بنت عبد الملك، فغدَّته عدساً، فقال الغلام: كل يوم عدس! قالت: يابني! هذا طعام مولاك أمير المؤمنين:

وما هي إلا جوعة قد سددتها فكل طعام بين جنبيَّ واحد

وقومت ثيابه وهو خليفة باثني عشر درهماً، وكانت حلته قبل ذلك بألف درهم.

*** إيثاره الاجتماع بأهل الفضل على العزلة:**

قال ميمون بن مهران: وكنت في سمر عمر بن عبد العزيز ذات ليلة، فقلت له: يا أمير المؤمنين! ما بقاؤك على ما أرى؟! أنت بالنهار مشغول في حوائج الناس، وبالليل أنت معنا هاهنا، ثم الله أعلم بما تخلو به. فقال: إليك عني يا ميمون؛ فإني وجدت لقاء الرجال تلقيحاً لألبابهم.

*** بعد نظره في السياسة:**

يجمع عمر ﷺ إلى الخلق العظيم استقامةً، وإلى الاستقامة حكمة،

وحسنَ نظر في السياسة، قال له ابنه عبد الملك يوماً: ما الذي يمنعك أن تمضي الذي تريده؟ فو الذي نفسي بيده! ما أبالي أن لو غَلَت بي وبك القدور في الحق، فقال: يا بني! إني لو باهت الناس بما تقول، لم آمن أن ينكروها، فإذا أنكروها، لم أجد بداً من السيف، ولا خير في خير لا يجيء إلا بالسيف. يا بني! إني أروض الناس رياضة الصعبة، فإن بطأ بي عمر، أرجو أن ينفذ الله مشيئتي، وإن تعدُ عليَّ منيتي، فقد علم الله الذي أريده.

*** وفاته ـ رحمه الله ـ:**

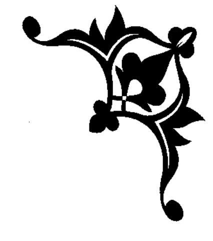
توفي عمر بدير سمعان من أرض المعرة سنة ١٠١ وله أربعون سنة، وكانت خلافته سنتين وستة أشهر وأياماً، كخلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

وقال الحسن البصري لما جاءه نعيه: مات خير الناس.

أيها السادة!

هذه محادثة أخذنا فيها بطرف من سيرة رجل من أعاظم رجال الإسلام، عسى أن تكون موضع قدوة لكل من تولى أمراً من أمور المسلمين، وأراد أن يكون له لسان صدق في الآخرين، والسلام عليكم ورحمة الله.



نظرةٌ في
حياة الإمام مالك بن أنس(١)

أكمل الله الدين بما أودع في الكتاب والسنّة من أصول وأحكام، وفتح للراسخين في العلم باب الاجتهاد؛ لينتزعوا أحكام الوقائع من أصولها، ويقيسوا الأمور بأشباهها، فانتقل رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى وفي أصحابه رضي الله عنهم رجال درسوا الشريعة، ووقفوا على أسرارها، وعرفوا مقاصدها في الإصلاح؛ كالخلفاء الراشدين، وعبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وأبي موسى الأشعري، وغيرهم مما لا يسع ذكرهم هذا المقام.

حفظ هؤلاء الأعلام الشريعة من جهة الرواية، فبلّغوها كما سمعوها، ونصحوا لها من جهة الدراية، فكانوا يتحرّون الحق إذا اجتهدوا، وكان مجلس كل واحد منهم كمدرسة يتلقى فيها الناس القرآن والحديث، ويتعلمون كيف يفصلون للحوادث أحكاماً، ويضعون للسياسة نظماً، وينقضي عهد الصحابة حتى عمرت بلاد الإسلام برجال رفعوا لواء العلم، وكانوا المثل الكاملة للاستقامة، والألسنة الصادقة لبيان الحقائق، والعقول الراجحة لتدبير وسائل السعادة؛ كالقاسم بن محمد، وعروة بن الزبير، وسعيد بن المسيب، وأبي

---

(١) محاضرة الإمام بدار جمعية «الهداية الإسلامية» في ١١ صفر ١٣٥٣. ونشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثامن من المجلد السادس.

بكر بن عبد الرحمن بن الحارث، وسليمان بن يسار، وعبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود، وخارجة بن زيد، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وشريح بن الحارث القاضي، وعمر بن عبد العزيز.

وفي هذا العصر الزاهر، وفي البلدة الطافحة بعلوم الشريعة أصولاً وفروعاً، وهي المدينة المنورة، ولد مالك بن أنس الذي صار إمام دار الهجرة من بعد.

*** نسب مالك:**

يتصل نسبه بذي أصبح أحد ملوك اليمن، فهو مالك بن أنس بن مالك ابن أبي عامر بن غَيمان بن خُثَيل بن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح.

ومالكٌ جدُّ مالك من كبار التابعين، يروي عن عمر، وطلحة، وعائشة، وأبي هريرة رضي الله عنهم، وهو أحد الأربعة الذين حملوا عثمان رضي الله عنه ليلاً إلى قبره، وأنس ـ الذي هو أبو مالك ـ يروي عن أبيه مالك بن أبي عامر، فهو من أهل الرواية والحديث.

*** مولد مالك ونشأته:**

ولد مالك في ربيع الأول سنة ثلاث أو أربع وتسعين من الهجرة، ونشأ بين أبوين صالحين، أما أبوه، فقد عرفتم أنه كان من أهل الحديث، وأما أمه، فيدل على صلاحها: أنه لما بلغ سن التعليم، عمّمته، وقالت له: اذهب فاكتب (تعني: الحديث)، وكانت تقول له: اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه، ويدل على عناية والده أنس بالقيام على حسن تربيته وتعليمه: ما حكاه مالك نفسه، فقال: كان لي أخ في سن أبي شهاب، فألقى أبي يوماً علينا مسألة، فأصاب أخي، وأخطأت، فقال لي: ألهتك الحَمام عن طلب

العلم، فغضبت، وانقطعت إلى أبي هرمز سبع سنين لم أخلطه بغيره.

وكان مالك شديد الحرص في طلب العلم، تتعرف هذا من انقطاعه لابن هرمز ثمان سنين، وقال: كنت أجعل في كمي قمطراً أناوله صبيانه، وأقول لهم: إن سألكم أحد عن الشيخ (يعني: ابن هرمز)، فقولوا: مشغول، وقال: كنت آتي ابن هرمز بكرة، فما أخرج من بيته حتى الليل.

*** قوة حافظته:**

مما ساعد الإمام مالكاً على بلوغه الذروة في العلم: قوة حافظته؛ فقد روي عنه: أنه قال: ما استودعت قلبي شيئاً فنسيته، وقال: كنت آتى ابن المسيب، وعروة، والقاسم، وأبا سلمة، وحميداً، وسالماً (وعدّ جماعة)، فأدور عليهم أسمع من كل واحد من الخمسين حديثاً إلى المئة، ثم أنصرف وقد حفظته كله من غير أن أخلط حديث هذا بحديث هذا.

*** ذكاؤه وقوة نظره:**

جمع مالك إلى قوة الحفظ سعةَ نظر، وغوصاً على حكمة التشريع، ويدلكم على حسن تفقهه فيما يحفظ: أنه كان يحمل النصوص على وجوه تطابق المعروف من قصد الشارع في التعبد أو الإصلاح، ويأخذ في كثير من الفتاوى بقاعدة رعاية المصالح، وقاعدة سد ذرائع الفساد، وقد كان في عصره من يحفظ حفظه للأحاديث والآثار، وإنما ارتفع ذكر مالك في الأقطار، ورحل إليه طلاب العلم من كل ناحية؛ لجودة نظره في الكتاب والسنة، وكثرة ما يفصله من الأحكام المندرجة تحت الأصول، أو الملوح إليها بالعلل المنصوصة أو المعقولة، وذلك ما لا يحسنه إلا قوي النظر، نافذ البصيرة إلى اللباب، قال ابن وهب: لولا أن الله أنقذني بمالك والليث، لضللت، فقيل

له: كيف ذلك؟ فقال: أكثرت من الحديث، فحيرني، فكنت أعرض ذلك على مالك والليث، فيقولان: خذ هذا، ودع هذا.

*** تحرِّيه في رواية الحديث:**

من رجال الحديث من يأخذ عن الثقات والضعفاء، ومنهم من لا يروي إلا عن الثقات، ومن هذا القبيل: مالك بن أنس، قال ابن عيينة، كان مالك لا يحدث إلا عن ثقات الناس، وذكر مالك مرة حديثاً، فقيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: إنا لم نجالس السفهاء، وكان مالك يقول: إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذونه، لقد أدركت سبعين ممن يقول: قال رسول الله ﷺ عند هذه الأساطين، (وأشار إلى المسجد)، فما أخذت عنهم شيئاً، وإن أحدهم لو ائتمن على بيت مال، لكان أميناً، إلا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن.

وقال ابن عيينة: ما رأيت أحداً أجودَ أخذاً للعلم من مالك، وما كان أشدَّ انتقاءه للرجال والعلماء!.

*** صدقه وإتقانه للرواية:**

بلغ مالك في الصدق والضبط في الرواية أقصى ما يبلغ الرواة، وروايته بشهادة كثير من الأئمة أصح رواية، قال البخاري: أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر. وقال أبو داود: أصح حديث رسول الله ﷺ ما يرويه مالك عن نافع عن ابن عمر، ثم ما يرويه مالك عن الزهري عن سالم بن عمر عن أبيه، ثم ما يرويه مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وقال ابن مهدي: ما أُقدم على مالك في صحة الحديث أحداً.

وقال ابن مهدي أيضاً: ما بقي على وجه الأرض آمن على حديث

رسول الله ﷺ من مالك.

* **غزارة علمه:**

حدثناك عن قوة حافظته، وثقوب ذهنه، وحرصه في طلب العلم، ومن جمع هذه الثلاث خصال، ولقي كبار العلماء، فسرعان ما يكون علماً شامخاً، وبحراً زاخراً، وقد دل ثناء كبار العلماء على مالك أنه كان إماماً في العلم، بالغاً فيه أسنى منزلة.

قال سفيان بن عيينة لما بلغته وفاة مالك: ما ترك على الأرض مثله.

وكان الأوزاعي يقول عندما يذكر مالكاً: هو عالم المدينة، وعالم العلماء، ومفتي الحرمين.

وقال الشافعي: مالك أستاذي، وعنه أخذت العلم، وما من أحد أمنّ عليّ من مالك، وجعلت مالكاً حجة بيني وبين الله، وإذا ذكر العلماء فمالك النجم الثاقب، وقال ابن معين: كان مالك من حجيج الله على خلقه، وقال بشر الحافي: إن من زينة الدنيا أن يقول الرجل حدثنا مالك.

ولا نمضي من هذا الفصل حتى نذكر لك حديثاً يرويه الثقات، وهو قوله ﷺ: «يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل في طلب العلم[1]، فلا يجدون أعلم[2] من عالم المدينة»، وهذا الحديث أخرجه الإمام أحمد، والترمذي وحسّنه، والنسائي، والحاكم في «المستدرك» وصححه. وقد حمل هذا الحديث بعض السلف عن مالك بن أنس. قال سفيان بن عيينة: ترى أن المراد

---

(١) في رواية: يلتمسون العلم.

(٢) في رواية: أفقه.

من الحديث مالك بن أنس؛ لأنه عاش حتى لم يبق له نظير بالمدينة، ويؤيده: أن طلاب العلم لم يضربوا أكباد الإبل من مشارق الأرض ومغاربها، ويرحلوا إلى عالم بالمدينة رحلتهم إلى مالك بن أنس.

*** تعظيمه لحديث رسول الله ﷺ:**

كان مالك إذا أراد أن يحدث، توضأ، وجلس على صدر فراشه، وسرَّح لحيته، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة، ثم حدَّث، فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، ولا أحدث به إلا متمكناً على طهارة.

وكان يكره أن يحدث على الطريق، أو قائماً، أو مستعجلاً، ويقول: أحب أن أتفهم ما أحدث به عن رسول الله ﷺ.

وقال ابن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدثنا حديث رسول الله ﷺ، فلدغته عقرب مرات، ومالك يتغير لونه ويصفر، ولا يقطع حديث رسول الله ﷺ، فلما فرغ من المجلس، وتفرق الناس، قلت: يا أبا عبدالله! لقد رأيت اليوم منك عجباً، فقال: نعم، إنما صبرت إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ.

ومر مالك على ابن أبي حازم وهو يحدِّث، فتعداه، فقيل له، فقال: لم أجد موضعاً أجلس فيه، فكرهت أن آخذ حديث رسول الله ﷺ وأنا قائم.

*** كراهته للابتداع في الدين:**

كان مالك يتحرى السنن، ويحث على اتباعها، ويتجنب البدع، ويحذر من ارتكابها، وكان كثيراً ما ينشد:

وخير أمور الدين ما كان سنَّةً   وشر الأمور المحدَثات البدائعُ

وسئل مرة عن الداء العضال، فقال: الحدث في الدين.

ولقد صدق مالك في تسمية البدعة الداء العضال، فقلما تتفشى البدعة

في قوم، ويشفون منها، فإن كان هناك برء منها، فبتلقي النشء قبحها وسوء عاقبتها قبل أن يشبوا عليها، وصرفِهم عنها قبل أن تتلوث فطرهم بأقذارها.

*** الرواة عن مالك:**

بلغ مالك في الفقه والحفظ والتفقه في الدين أقصى ما يمكن أن يبلغه راسخ في العلم، واشتهر بالصدق، وإتقان الرواية، فكان فيهما العلمَ الشامخ، والقمر الزاهر، فلا جرم أن يقبل عليه طالبو العلم من كل مكان، وأن يروي عنه أقرانه وشيوخه دون أن يجدوا في صدورهم حرجاً من الرواية عمن هو في طبقتهم، أو من كان يتلقى العلم في مجالسهم.

قال جعفر الفريابي: لا أعلم أحداً روى عن الأئمة والجِلّة ممن مات قبله بدهر طويل إلا مالكاً، وقد روى عنه من أقرانه: سفيان الثوري، والليث ابن سعد، والأوزاعي، وسفيان بن عيينة، وروى عنه: الإمام أبو حنيفة، وصاحباه: أبو يوسف، ومحمد بن الحسن.

وروى عنه من شيوخه: محمد بن مسلم بن شهاب الزهري، وأيوب السختياني، وربيعة بن عبد الرحمن، ونافع بن أبي نعيم القارئ.

وكان مالك من أكثر رجال الحديث رواة، وقد أفرد الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي كتاباً في الرواة عن مالك أورد فيه ألف رجل إلا سبعة، وألّف القاضي عياض كتاباً في ذلك، فذكر نحو ألف اسم وثلاث مئة اسم.

*** كرم أخلاقه وسمو آدابه:**

كان مالك على خلق كريم، وأدب نبيل، وقد شهد له بذلك أفاضل الرجال من أهل العلم.

قال ابن وهب: الذي تعلمت من أدب مالك أفضل من علمه، كان

يحيى بن يحيى بن بكير أقام عند مالك بعد أن فرغ من سماع الحديث عنه، وقال: إنما أقمت مستفيداً لشمائله، فإنها شمائل الصحابة والتابعين.

وكان ربيعة إذا جاء مالك يقول: قد جاء العاقل.

وقال زياد بن يونس: كان ـ والله ـ مالك أعظم الخلق مروءة، وأكثرهم سمتاً، ورأيته كثير الصمت، قليل الكلام، متحفظاً للسانه.

وقال ابن المبارك: كان مالك أشد الناس مداراة للناس، وترك ما لا يعنيه.

وكان مالك يحافظ على فضيلة الإنصاف، ويقول: ليس في الناس أقل من الإنصاف، فأردت المداومة عليه، وكان ـ على اعتزازه بمقامه العلمي ـ شديد التواضع. قال له ابن القاسم: ما أعلم أحداً أعلم بأحكام البيوع من أهل مصر، فقال له: وبم ذلك؟ قال: بك، قال مالك: فأنا لا أعرف البيوع، فكيف يعرفونها بي؟!.

ويدلكم على رسوخه في الإنصاف والتواضع، وإيثار الحق على حب الانفراد بالإمامة: أن أبا جعفر المنصور قال له: إني قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التي وضعتها (يعني: الموطأ) فننسخ نسخاً، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة، وآمرهم أن يعملوا بما فيها، لا يتعدوها إلى غيرها، ويدَعوا ما سوى ذلك من هذا العلم. فقال له مالك: يا أمير المؤمنين! لا تفعل؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، وعملوا به، ودانوا به من اختلاف الناس: أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم، وإنَّ ردهم عما اعتقدوه شديد، فدع الناس وما هم عليه، وما اختار كل أهل بلد لأنفسهم.

* **وعظه للملوك:**

لم يكن مالك بالذي يهاب الخلفاء هيبة تمنعه من الجهر بنصيحتهم، أو بالذي يحمله الطمع على تملقهم.

دخل يوماً على الرشيد، فحثه على مصالح المسلمين، وقال له: لقد بلغني أن عمر بن الخطاب ﷺ كان في فضله وقِدَمه ينفخ لهم عام الرمادة النار تحت القدور حتى يخرج الدخان من تحت لحيته، وقد رضي الناس منكم بدون هذا.

ولأنه يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجالس الأمراء لم يبال الدخول عليهم، وروي أنه قيل له: إنك تدخل على السلطان، وهم يظلمون ويجورون! فقال: يرحمك الله، فأين يكون الكلام بالحق؟.

وناظره الخليفة أبو جعفر المنصور في مسجد رسول الله ﷺ، ورفع صوته؛ فقال له مالك: يا أمير المؤمنين! لا ترفع صوتك في هذا المسجد؛ فإن الله ﷻ أدب قوماً فقال: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾[الحجرات: ٢]، ومدح أقواماً فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾[الحجرات: ٣].

* **اعتزازه بمقامه العلمي في مجالسهم:**

كان مالك متواضعاً، ولكنه يقدر مكانته العلمية، ويصون كرامتها، ويحوطها بالعزة من كل جانب.

قدم الخليفة المهديُّ المدينة، فأقبل الناس عليه مسلِّمين، فلما أخذوا مجالسهم، جاء مالك، فقالوا: اليوم يجلس مالك آخر الناس، فلما دنا، ونظر ازدحام الناس، وقف، وقال: يا أمير المؤمنين! أين يجلس شيخك مالك؟

فناداه المهدي: عندي يا أبا عبدالله، فتخطى الناس حتى وصل إليه، فرفع المهدي ركبته اليمنى، وأجلسه بجنبه.

وإذا كان يقبل عطايا الملوك، فلأنه يستعين بها في سبيل بث العلم، دون أن يكون لها أثر في تملقهم، أو الإغضاء عن أهوائهم.

لما حجَّ هارون الرشيد، وقدم المدينة، بعث إلى مالك بكيس فيه خمس مئة دينار، ورحل إلى مكة لقضاء نسكه، ولما عاد إلى المدينة، بعث إلى مالك يطلب منه الانتقال معه إلى بغداد، فقال مالك للرسول: قل له: إن الكيس بخاتمه، وإن رسول الله ﷺ يقول: «والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»، وقال له الرشيد: تأتينا حتى نتعلم عليك، ونسمع منك، فقال له: العلم يُؤتى ولا يأتي، قال: نأتي، وتمنع الناس حتى ننصرف، قال: إذا منع العلم من العامة، لم ينفع الله به الخاصة ولا العامة، فذهب الرشيد إلى منزل مالك، وتعلم منه، وسمع عليه، وكان القارئ له معن بن عيسى القزاز.

وسئل عيسى بن عمر المدني: أكان مالك يغشى الأمراء؟ قال: لا، إلا أن يبعثوا إليه فيأتيهم.

ودخل مرة على هارون الرشيد، وبين يديه شطرنج منصوب، وهو ينظر فيه، فوقف مالك ولم يجلس، وقال: أحق هذا يا أمير المؤمنين؟ قال: لا، قال: فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! فرفع هارون رقعته، وقال: لا ينصب بين يدي بعدُ.

وقال: والله! ما دخلت على أحد منهم ـ يعني: السلطان ـ إلا أذهب الله هيبته من قلبي حتى أقول له الحق.

روي أنه كان جالساً مع أبي جعفر، فعطس أبو جعفر، فشمته مالك، فلما خرج، أنكـر عليه الحاجب ذلك، وتهدده إن عاد لتشـميته، فلما كان بعد ذلك، جلس عنده، فعطس أبو جعفر، فنظر مالك إلى الحاجب، ثم قال للمنصور: أي حكم تريد يا أمير المؤمنين، أحكم الله، أم حكم الشيطان؟ قال: لا، بل حكم الله، قال: «يرحمك الله».

*** محنته:**

من المعروف في تاريخ مالك بن أنس أنه ضُرب بالسياط[1]، واختلف المؤرخون في الخليفة الذي ضرب في عهده، هل هو المنصور، أو هارون الرشيد؟ والمشهور أنه ضرب في عهد المنصور، والضارب له جعفر بن سليمان ابن علي بن عبدالله بن العباس في ولا يته الأولى بالمدينة المنورة.

أما سبب ضربه، فأكثر الرواة على أنه سعى به إلى جعفر، وقيل له: إنه لا يرى أيمان بيعتكم بشيء؛ فإنه يأخذ بحديث قيس بن ثابت بن الأحنف في طلاق المُكْرَه أنه لا يجوز، ويضيفون إلى هذا: أنه ذكر لجعفر أنه ـ أي: الإمام ـ أفتى عند قيام محمد بن عبدالله بن حسن العلوي بأن بيعة أبي جعفر لا تلزم؛ لأنها على الإكراه[2].

ولما حج المنصور، أراد إرضاء مالك، فأرسل إليه جعفرَ بن سليمان ليقتص منه، فقال مالك: أعوذ بالله، والله! ما ارتفع منها سوط عن جسمي

(١) ضرب سنة ١٤٦ ست وأربعين ومئة. وقال ابن الجوزي في «شذور العقود» في حوادث سنة ١٤٧: وفيها ضرب مالك.

(٢) وخالف هؤلاء الرواة ابن بكير، وقال: ما ضرب مالك إلا في تقديمه عثمان على علي، فسعى به الطالبيون حتى ضرب.

إلا وأنا أجعله في حل من ذلك الوقت؛ لقرابته من رسول الله ﷺ. وجعفر هذا فاطمي من جهة أمه؛ فإن أمه هي أم الحسن بنت جعفر بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب ﷺ.

وقال الدراوردي سمعت مالكاً حين ضربه جعفر يقول: اللهم اغفر لهم فإنهم لا يعملون.

وازداد قدر مالك بعد هذه المحنة رفعة، وعظَّمه الناس أكثر مما كانوا يعظونه.

*** اختياره العزلة في آخر حياته:**

كان مالك يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويجلس في المسجد، ويجتمع إليه أصحابه، ثم ترك الجلوس في المسجد، فكان يصلي وينصرف إلى مجلسه، وترك حضور الجنائز، فكان يأتي أهلها فيعزيهم، ثم ترك ذلك كله، واحتمل الناس له ذلك حتى مات، وروي أنه خوطب في ذلك، فقال: ليس كل الناس يقدر أن يتكلم بعذره، وروي أنه عندما حضرته الوفاة، سئل عن تخلفه عن المسجد، فقال: سلس بول، فكرهت أن آتي مسجد رسول الله ﷺ على غير طهارة، وكرهت أن أذكر علّتي فأشكو.

*** نعته:**

كان مالك طويلاً، جسيماً، عظيم الهامة، أعينَ، شديد البياض إلى شقرة، حسن الصورة، أشم، عظيم اللحية تبلغ صدره، ذات سعة وطول.

وكان يأخذ أطراف شاربه ولا يحلقه، ولا يحفيه، ويرى حلقه من المُثْلَة، وكان يترك له سَبَلتين[1] طويلتين، ويحتج بأن عمر ﷺ كان يفتل شاربه

---

(١) السبلة: ما على طرف الثياب.

إذا أهمه أمر. والمشهور عنه أنه لا يغير شيبه بالخضاب.

وقال مصعب الزبيري: كان مالك من أحسن الناس وجهاً، وأحلاهم عيناً، وأنقاهم بياضاً، وأتمهم طولاً في جودة بدن.

*** مؤلفاته:**

من أشهر مؤلفات مالك: «الموطأ»[1]، وهو كتاب توخى فيه القويّ من الأحاديث المرفوعة والمرسلة، ومزجه بأقوال الصحابة، وفتاوى التابعين ومن بعدهم، وممن شهد ببلوغه في الصحة الغاية القصوى: الإمام الشافعي بقوله: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصح من كتاب مالك.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: «الموطأ» هو الأصل الأول واللباب، وكتاب البخاري هو الأصل الثاني في هذا الباب، وعليهما بنى الجميع؛ كمسلم، والترمذي.

ومن مؤلفاته: رسالة رد فيها على القدرية، وكتاب في النجوم وحساب مدار الزمان ومنازل القمر، ورسالة في الأقضية، كتب بها إلى بعض القضاة في عشرة أجزاء، ورسالة إلى أبي غسان محمد بن المطرف، وكتاب في التفسير لغريب القرآن، ونسب إليه كتاب يسمى: كتاب السير في رواية ابن القاسم عنه، ورسالته إلى الليث بن سعد في إجماع أهل المدينة، أما رسالته المشهورة إلى هارون الرشيد، فقد أنكرها طائفة من أصحابه، حتى إن أصبغ بن الفرج حلف على أنها ليست من وضع مالك.

---

(١) قيل: سمي: «موطأ»؛ لأنه شيء قد صنفه ووطأه للناس، وقيل: لأن مالكاً عرضه على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة، فواطؤوه عليه، فسماه: «الموطأ».

* **مقتبسات من حكمه ووصاياه:**

لمالكٍ حِكَم بالغة، ووصايا نافعة، شأن من درس القرآن والسنة بعقل راجح، وسريرة طاهرة.

قال مالك: من صدق في حديثه، متع بعقله، ولم يصبه ما يصيب الناس من الهم والخوف.

وقال: طلب الرزق في شبهة أحسن من الحاجة إلى الناس.

وقال: تعلموا الحلم قبل العلم.

وقال: العلم نور يجعله الله حيث يشاء ليس بكثرة الرواية.

وقال: نعم الرجل فلان، إلا أنه كان يتكلم كلام شهر في يوم.

وقال مطرف: قال لي مالك: ما يقول الناس فيَّ؟ قلت: أما الصديق، فيثني، وأما العدو، فيقع، فقال: ما زال الناس هكذا: لهم صديق وعدو، ولكن نعوذ بالله من تتابع الألسنة.

ودلت الروايات على أن أصحابه كانوا إذا أرادوا وداعه، طلبوا منه أن يزوّدهم بنصائح ينتفعون بها في مستقبل حياتهم، قال يحيى بن يحيى الأندلسي: لما ودعت مالكاً، سألته أن يوصيني، فقال: عليك بالنصيحة لله ولكتابه ولرسوله.

وقال الحارث بن أسد من أهل قفصة بإفريقية: دخلت على مالك أنا وابن القاسم وابن وهب، فقال له ابن وهب: أوصني، فقال له: اتق الله، وانظر عمن تنقل. وقال لابن القاسم: اتق الله، وانشر ما سمعت. وقال لي: اتق الله، وعليك بتلاوة القرآن.

قال الحارث: لم يرني أهلاً للعلم، فكان يستفتي ولا يفتي، ويقول:

لم يرني مالك أهلاً للعلم.

وقال أسد بن الفرات: كنت أنا وصاحباً يلزم مالكاً، فلما أردنا الخروج إلى العراق، أتينا مودِّعين، فقلنا له: أوصنا، فالتفت إلى صاحبي، فقال له: أوصيك بالقرآن خيراً، والتفت إليَّ وقال: أوصيك بهذه الأمة خيراً.

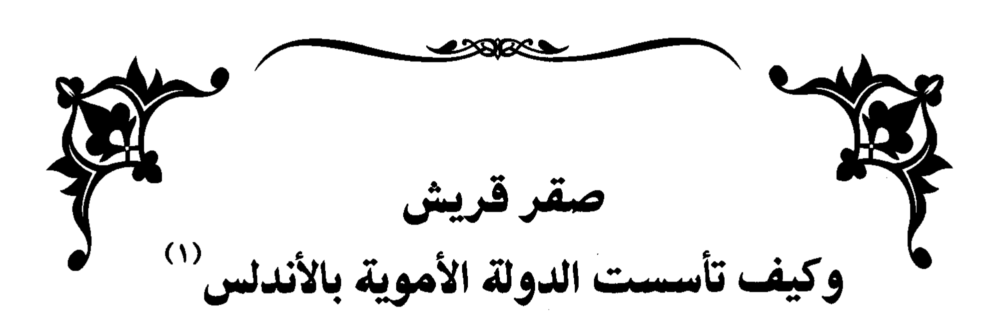
وقال خالد بن خداش: ودعت مالكاً، فقلت: أوصني، قال: تقوى الله، وطلب الحديث من أهله.

*** وفاته:**

مرض مالك نحو اثنين وعشرين يوماً، وتوفي في ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومئة، وكان آخر كلامه أن تشهَّد، وقال: لله الأمر من قبلُ ومن بعدُ، وصلى عليه أمير المدينة وقتئذ عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن محمد ابن علي بن عبدالله بن عباس، وشيع جنازته ماشياً، وكان أحد من حملوا نعشه، وقبره معروف اليوم في البقيع، أفاض الله عليه رحمة ونوراً.

قضى هذا الإمام الجليل ـ رحمه الله تعالى ـ نحو ستين سنة في التفقه في الدين والإفتاء والاجتهاد في طاعة الله، ورجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، وهذه صفحة من حياته نعرضها على حضراتكم، وإن في ذلك لعبرة لأولي الألباب، والسلام عليكم ورحمة الله.





صقر قريش
وكيف تأسست الدولة الأموية بالأندلس(١)

الحديث عن عبد الرحمن الداخل مؤسسِ الدولة الأموية في الأندلس، يستدعي كلمة موجزة في الحالة السياسية بتلك البلاد؛ لنعلم كيف تهيأت الأسباب لتبوئه عرش إمارتها.

عين الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير عاملاً لإفريقية، وكانت عاصمة إفريقية يومئذ القيروان، فسار موسى بن نصير من القيروان، فوطَّد الأمن ببلاد المغرب، واستعمل على «طنجة» وما والاها تابعه طارق بن زياد، ثم قفل راجعاً إلى القيروان.

وبعد عودته كتب إلى طارق يأذنه في المسير إلى فتح الأندلس، فجهز طارق جيشاً يقال: عدته اثنا عشر ألفاً، واجتاز البحر إلى إسبانيا، ونزل بمكان يعرف الآن بجبل طارق، وبعد أن تجاوز البحر، أحرق السفن، وقال في خطبة خطبها:

«أيها المجاهدون! لقد آن الأوان، فالعدو أمامنا، والبحر خلفنا، ولم يبق إلا الموت، فاختاروا إحدى الموتتين»، فاختار المسلمون الجهاد، فاختار لهم الله النصر، وفتحوا بلاداً كثيرة في مدة قليلة.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء السابع من المجلد الثامن.

ولما بلغ خبر انتصاره موسى بن نصير، كتب إليه أن قف بالمكان الذي انتهيت إليه في الفتح، حتى أقدم إليك، وسرعان ما وصل موسى إلى الأندلس، وامتد في الفتح حتى توغل في البلاد.

ولما بلغ خبر هذا الفتح الوليدَ بن عبد الملك، أرسل يستدعي موسى ابن نصير، وطارق بن زياد، فنظم موسى الحكومة بالأندلس، وجعل على رأسها ابنه عبد العزيز، وسار بمغانم كثيرة، وركب هو وتابعه طارق البحر إلى دار الخلافة بدمشق.

ولما قارب دمشق، أرسل إليه سليمان أخو الوليد بأن الوليد في علة سيموت بها قريباً، فتمهل حتى يكون دخولك في أيامي، لينسب الفتح إليَّ، فأبى موسى أن يتمهل، وقدم دار الخلافة في أيام مرض الوليد.

ولما مات الوليد، انتقم من موسى بن نصير، وجرده من كل شيء، حتى مات موسى في حالة فقر وبؤس، ويقال: إن سليمان هذا لا يعرف له شدة غير ما فعله بموسى بن نصير.

ثم إن عبد العزيز بن موسى بن نصير قتل سنة ٩٨، وتولى إمارة الأندلس أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير، وتولاها بعده الحر بن عبد الرحمن الثقفي، ثم السمح بن مالك، وكان من المصلحين، ثم عبد الرحمن الغافقي، ثم عنبسة بن سحيم الكلبي، ثم عاد إليها عبد الرحمن الغافقي، وكان عادلاً حليماً، وهو الذي دخل بلاد فرنسا، ورفع لواء الإسلام فوق أسوار «ليون» ثم عبد الملك بن قطن الفهري، وكان ظالماً جائراً، فعزل، ثم عقبة بن الحجاج السلوي، وكان خير مثال للعدل والتقوى، ثم ثعلبة بن سلامة.

ووقع في عهد ثعلبة بن سلامة هذا تنافسٌ بين اليمنيين والمضريين، فانحاز ثعلبة إلى اليمنيين، فهاج عليه المضريون، وجاء أمر الخليفة بتعيين أبي الخطار حسام الكلبي، وهو من اليمنيين، فاستقرت نار الفتنة بين القبيلتين، وانهزم اليمنيون، وقتل أبو الخطار، وتولى الأمر ثوابة بن سلامة، وتوفي، فتولى بعده يوسف بن عبد الرحمن الفهري، فسكنت الأمور، وتراضى الفريقان، وبقي في الإمارة نحو عشر سنين، وقامت في هذه السنين ثورات في نواحي من البلاد متعددة، فأخمد يوسف نارها.

لندع الأندلس وهي تحت إمارة يوسف بن عبد الرحمن الفهري، ونرجع إلى الشرق؛ لنعلم كيف خرج عبد الرحمن بن معاوية قاصداً المغرب حتى قبض على زمام الأندلس.

معروف أن آخر خلفاء بني أمية في الشرق مروان بن محمد، ففي عهده ظهرت دعوة أبي مسلم إلى العباسيين، وسقطت الدولة الأموية، وقامت مكانها الدولة العباسية.

ومن سيرة السفاح، وتابعه عليها المنصور: الفتكُ بالأمويين، ومطاردتهم، وممن خاف من سطوة هذه الدولة: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك، فاختفى متنقلاً من بلد إلى آخر قاصداً المغرب حتى وصل إلى «مليلة»[1]، ونزل عند شيخ من البربر حيناً، حتى لحق به مولى أبيه (بدر) بأموال أنفذتها إليه أخته من ذهب وجواهر، وكان عبد الرحمن قد جعل مطمح أمله أفريقيا، ثم رأى أمرها عسراً، فوجه نظره إلى الأندلس، وبعث إليها بدراً مولاه ليمهد له السبيل، ويقرب إليه البغية. فاجتمع بموالي المروانيين وأشياعهم،

---

(١) مدينة بالمغرب على ساحل البحر.

فبثوا لعبد الرحمن الدعوة، وصادف ما كان بين اليمنية والمضرية من نزاع وتقاطع، فأجمعت اليمنية على أمر بيعته، ورجع بدر بالخبر إلى عبد الرحمن، فعبر عبد الرحمن البحر سنة ١٣٨، ونزل بساحة المنكبّ[١]، فأقبل الناس على مبايعته، وما زال ينتقل في البلاد حتى انتظم له جيش عظيم، فزحف إلى «قرطبة»، ولاقاه يوسف الفهري بظاهرها.

ودارت بينهما رحى الحرب، فانهزم يوسف، ودخل عبد الرحمن القصر، وخرجت إلى عبد الرحمن زوج يوسف وابنتاه، فقلن له: يا ابن عمنا! أحسن كما أحسن الله إليك.

فقال: أفعل، ودعا بصاحب الصلاة، وكان صاحب الصلاة مولى ليوسف الفهري، وأمره بضم النساء إليه.

وخرج عبد الرحمن في ذلك اليوم، فصلى بالناس صلاة الجمعة، ووعدهم في خطبته خيراً.

ولما انهزم يوسف الفهري، توجه إلى غرناطة، واستولى عليها، فخرج عبد الرحمن في أثره، وحاصره حتى نزل على أمانه، وجاء به إلى قرطبة، وحجز عنه ولديه: عبد الرحمن، ومحمداً، وأبقاهما عنده كِرهانٍ حتى لا ينقض العهد.

ثم إن يوسف الفهري غدر، فخرج هارباً من قرطبة حتى أتى «طليطلة» ليعيد الكرة على عبد الرحمن، فاغتاله أحد أصحابه.

وكان من عبد الرحمن أن عاد إلى قرطبة، واشتد في عقوبة ولدي يوسف

---

(١) بلد على ساحل جزيرة الأندلس.

الفهري، فقتل عبد الرحمن، وحكم على أخيه محمد بالسجن الدائم.

ثم إن محمداً ـ وكان يكنى: أبا الأسود ـ اتخذ حيلة تخلص بها من السجن، ولحق بطليطلة، ودعا إلى نفسه، واستمال الناس، ووقعت بينه وبين عبد الرحمن واقعة انتصر فيها عبد الرحمن، وانهزم جيش أبي الأسود، وفر أبو الأسود إلى ناحية بغرب الأندلس، وتوفي هناك.

وقام بعد أبي الأسود أخوه قاسم بن يوسف، فخرج إليه عبد الرحمن، فلما دنا منه، سلم إليه نفسه في غير أمان، فتقبله، وأحسن إليه.

وفي سنة ١٤٦ تجهز العلاء بن مغيث اليحصبي عامل أفريقية لغزو الأندلس، فعبر البحر، ونزل بجيشه في «باجة» داعياً إلى أبي جعفر المنصور. فخرج عبد الرحمن لقتاله، وتلاقيا بظاهر «إشبيلية»، فانهزم جيش ابن مغيث، وقتل ابن مغيث مع كثير من أصحابه، وبعث عبد الرحمن برؤوسهم إلى القيروان، فألقيت في أسواقها سراً.

وتفرغ عبد الرحمن بعد هذا لغزو بلاد الإفرنج، وتم له النصر على جميع أعدائه.

وتوفي عبد الرحمن على فراشه في قرطبة ١٧٣، فكانت ولايته اثنتين وثلاثين سنة، ودفن بجانب من المسجد الجامع الذي بناه.

ومن آثاره: بناؤه المسجد الجامع بقرطبة، ولكنه مات قبل إتمامه، ودوّن الدواوين، وزيّن قرطبة بالمباني الضخمة، والحدائق الغناء، وأدار أسوارها.

وكان يقعد للعامة، وينظر أمورهم بنفسه، ومن عاداته: أن يتناول معه الطعام كل من أدركه من أصحابه وقت الطعام، وكل من وافق ذلك

من طلاب الحوائج.

وكان مديد القامة، نحيف الجسم، وقال ابن الأثير في نعته: «كان فصيحاً لسناً، شاعراً عالماً حليماً حازماً، ولا يكل الأمور إلى غيره، شجاعاً مقداماً، بعيد الغور، شديد الحذر، سخياً جواداً، وكان يقاس بالمنصور في حزمه وشدته وضبط المملكة».

ومن بديع شعره قوله متشوقاً إلى وطنه:

أيها الراكب الميمِّم أرضي ... أقر مني بعض السلام لبعض

إن جسمي كما تراه بأرض ... وفؤادي ومالكيه بأرض

قدَّر البين بيننا فافترقنا ... وطوى البين عن جفوني غمضي

قد قضى الدهر بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

وقال في هذا الغرض:

تناءت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى ... وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيه غريبة ... فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

وفي أيامه دخل الأندلس عالمان جليلان كانا قد رحلا من الأندلس إلى الشرق بعد دخوله:

أحدهما: الغازي بن قيس، دخل الأندلس بموطأ مالك بن أنس، وبقراءة نافع بن أبي نعيم، فكان عبد الرحمن يكرمه، ويواليه بالصلة في منزله.

ثانيهما: أبو موسى الهواري، جاء الأندلس، وكان قد جمع العلوم

العربية إلى علوم الدين.

وفي أيامه نشأ شاعر الأندلس أبو المخشيّ، ومما جرى لهذا الشاعر: أن مدح سليمان بن عبد الرحمن بشعر، ووقع في وهم بعض الناس أنه عرض بأخيه هشام، فتعصب لهشام أحد مريديه، واعتدى على الشاعر، فأتلف بصره، فقصد الشاعر عبد الرحمن، وأنشد بين يديه أبياتاً يقول فيها:

خضعت أم بناتي للعدا ... أن قضى الله قضاء فمضى

ورأت أعمى ضريراً إنما ... مشيه في الأرض لمس بالعصا

فاستكانت ثم قالت قولة ... وهي حرّى بلغت مني المدى

ففؤادي قرح من قولها ... ما من الأدواء داء كالعمى

فأعطاه عبد الرحمن ألفي دينار، وضاعف له الدية.

وكان نقش خاتمه: «بالله يثق عبد الرحمن، وبه يعتصم».

وقد كنت نظمت خلاصة ما تضمنته هذه القصة في موشح تحت عنوان: (صقر قريش)، وإليك هذا الموشح:

خلِّ نفس الحر تصلى النُّوَبا ... لا تبالي

ليست الأخطار إلا سببا ... للمعالي

* * *

يا مكبّاً بين ظبي أدعجا ... ومهاة

إنما الهمة في حجر الحجا ... كالنبات

أفلا تذبل إذ تقضي الدجى ... في سُبات

فإذا بتَّ تجاري الكوكبا ... في مجالِ

كنت كالضرغام يمشي الهيدبى[1] للنـــــــزالِ

* * *

مـا لهـذي الـسمهريات فخـار في الحـرابْ
غيـر عـزم هـزّه حـامي الـذمار بالتهــــاب
أتـرى الـرامح[2] ذا قلـب يغـار فيُهــــاب
جرَّ فـي الآفـاق رمحـاً سـلهبا[3] باختيــــالِ
وهــو كــالأعزل لا يلقـى الظُّبـا والعــــوالي

* * *

رُبَّ كِـــنٍّ لا نــــسميه عرينـــا فــي البيــان
والـذي يحميـه لا يلـوي جبينـا عــن طعــان
يحطـم الطـاغي لا يبقـى مهينـا فــي هـــوان
وهزبـــر الغـــاب يعـــدو خببـــا فــي الــدِّغال
عــضَّه الجــوع فمــدَّ المخلبــا لاغتيــــال

* * *

عاشق العليـاء خـض فـي لجج مــن رمــاح
وترشــف مــن عــصير المهــج لا جُنــــاح

---

(١) الهيدبى: ضرب من مشى الخيل فيه جد.

(٢) الرامح والأعزل: نجمان يسمى أحدهما: السماك الرامح، والآخر: السماك الأعزل.

(٣) السلهب: الطويل.

يـضحك الملــك بثغــر بهــج كالـــــصَّباح
إن نكـى الخـصم فمـاجوا هربـاً كالثعـــالي[1]
وابتغـاء الـسلم مـن بـاني الزُّبـى كالمحـــــال

* * *

خاطر اليـأس لـدى بـاغي العـلا غيــر ســائغْ
إن تـــوخى عبقـــريٌّ أمـــلا فهـــو بـــالغ
وحيـاة الـصقر[2] ســارت مـثلا للنوابـــــغ
إذ بـدا فـي «ديـر حنـا» وشـبا[3] كـــــالهلال
وليـالي الـشام فـي عهـد الـصبا كـــــاللآلي

* * *

ذاق في الخامس من صدر سنيه مضــــــضا
والـردى سـيف بكـفٍّ لا تتيـه[4] ينتــــــضى
أرهـــف الحـــدَّ وأودى بأبيـــه حَرَضـــــا[5]

---

(١) جمع ثعالة، وهي أنثى الثعلب.

(٢) الصقر: عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك.

(٣) شبا؛ أي: نما وترعرع. يقال: شبا الشجر: طال والتف نعمة.

(٤) لا تتيه: لا تتحير ولا تضل.

(٥) أرهف الحد: فاعل أرهف ضمير الروي في البيت قبله. وحرضا: نزل به الهلاك، أو بلغ منه الحزن والهم. وهو حال من «أبيه».

هـل زوت زهرتـه حتـى هبـا[١] فــي كــلال
إن فــي نفــس تــسامت حــسبا خيــــرُ وال

* * *

أبــصر الجــدُّ بــه روحَ الهمــام باديـــــا[٢]
كالشذا ينبئ عـن زهـر الكِمـام هاديـــــا
وتريك الشمس في قوس الغمام ماهيـــــا
حفـه عطفـاً كمـا تـسري الـصَّبا بـــاعتلالِ
ويــدٌ ظلَّــت تحــابي الأنجبــا لــم تغــالِ

* * *

ضرب الخطبُ على الملك الأثيل محـــدقا[٣]
كم دهـا الـسفاح مـن حُـرّ نبيـل مرهقــــا[٤]
وجرى المنصور في هذا الـسبيل مُوبقـــــا
ذهبــت عــصبته أيــدي ســبا فــي نكــالِ
وتــداعى عرشــه منتحبــا للـــــزوالِ

* * *

(١) هبا: هلك ومات.

(٢) الجد: هشام بن عبد الملك عاشر خلفاء بني أمية، وقد ترعرع عبد الرحمن في صولته، وتولى في ظل حزمه ونعمته.

(٣) الملك الأثيل: الدولة الأموية.

(٤) هو أبو عبدالله السفاح أول خلفاء الدولة العباسية.

حـدق الـصقر بـرأي لا عجـل　　لا خَـــــسير
وانبرى يطوي الفلا يطوي الأمل　　فـي الـضمير
ككَمـيّ فـرَّ مـن وقـع الأسـل　　ليُغيـــــــر
عَمِيــتْ عنــه عيــونُ الرُّقبــا　　والمـــوالي
راح كالـــشمس تــؤمُّ المغربــا　　بارتحــــال

* * *

جمرةُ الأضغان فـي ذاك الـوطن　　لافحـــــه[١]
كــم قلــوب بتبــاريح الإِحَــنْ　　طافحـــــه
فرصة ظلـت علـى وجـه الـزمن　　ســــانحه
إنمــا الفرصـــة تـــدني الأربــا　　بارتجـــالِ
والفتـــى يرقبهـــا محتـــسبا　　لليــــالي

* * *

نفـض البـرْدَين مـن نقـع الـسفر　　في «مليله»[٢]
مالـه جنـد سـوى الـرأي الأغـر　　والفـــضيلة
بــثَّ لُـسناً نفثـت نفـث الـسحر　　فـي الخميلـة
دعـوة حـل لهـا الـشعبُ الحُبـا　　باحتفـــالِ

---

(١) تلك كانت حال الأندلس لما هبط عبد الرحمن الداخل بلاد المغرب، وهو لا يحمل غير حجاه وعزيمته.

(٢) مليلة: مدينة بالمغرب قريبة من سبتة على ساحل البحر ـ انظر: «معجم البلدان».

يرتجـــي عـــزاً وعـــدلاً ذهبـــا ... فـــي ضـــلالِ

* * *

آب (بـــدرٌ) بفـــؤاد يتـــألق ... كالجمـــانِ[1]

إذ رمـــى عـــن قـــوس داهٍ وتفـــوّق ... فـــي الرهـــان

ورأى غصن الأماني كيـف أوْرَق ... فـــي تـــداني

آن للصمـــــصام أن ينتـــــصبا ... للـــــصقالِ

ولغـــالي الـــدم أن ينـــسكبا ... بابتـــــذالِ

* * *

نهـض الـصقر ولا صـيد سـوى ... تـــاج مُلـــكِ

يتهـــادى بعـــد شـــجو ونـــوى ... بـــين أَيْـــكِ

يـسبك الـسيرة فـي نهـج سُـوى ... خيـــرَ ســـبك

عبـــر البحـــر يـــشق الحببـــا[2] ... فـــي جـــلالِ

أقبـــل الأبعـــد يتلـــو الأقربـــا ... ويـــــوالي

* * *

زج بالجنـــد حـــواليْ «قرطبـــه» ... فـــي اتّـــساق

---

(١) بدر: مولى عبد الرحمن الداخـل، وهو نصيـره الوحيد في رحلته من الشـام إلى المغرب.

(٢) الحبب: معظم الماء وطرائقه.

وغـــدا يوســـف ممـــا كربـــه ... في خنـاق[1]
هـو صـبٌّ كيـف يلـوي الرقبـه ... للفـــــراق
هالــه الخطــب غــداة اقتربــا ... للقتـــــال
لاذ بـــالرأي فأكـــدى وكبـــا ... فـــي خبـــال

* * *

خـــال مـــا نمَّـــق كيـــداً يرشـــقه ... كـــــسهام
لا يبيـــع المجـــد شـــهم يعـــشقه ... بالحطـــــام
لا تُـــــسليّه فتـــــاة ترمقـــــه ... بابتـــــسام
فـــأراه الـــصقر برقـــاً خلبـــا ... فـــي المقـــالِ
وأراه الأحـــــوذيَّ القلبَّـــــا ... بالفعـــــالِ

* * *

هجم الداخل فـي وجـه الـزعيم ... كائـــــــدا
فطـوى مـا خلفـه طـيَّ الظلـيم ... شـــــــاردا
واقتفــى آثــاره الجــيش النظـيم ... صـــــــائدا
رام «غرناطـــة» يبغـــي مركبـــا ... للنـــــضالِ
أمـــل أبـــرق حينـــاً وخبـــا ... كالـــــذُّبالِ

* * *

---

(١) يوسف: هو ابن عبد الرحمن بن حبيب الفهري، وكان ولي الأمر بالأندلس عند دخول عبد الرحمن.

أغمــد الــسيف ومــد العنقــا   للــــسلامْ[١]

فــأراه الــصقر عزمــاً ذلقــا   لا ينـــــامْ

أحـــرز ابنَيْــهِ ليــأبى الرهقــا   في الـذِّمام[٢]

كان فـي النـاس زعيمـاً فـاحتبى   بـــــاعتزال

لم يطق ـ كالطفل ـ صبراً إذ نبـا   عــن فـصال

* * *

تــبَّ ليــل شــدَّ فيــه المئــزرا   لانتقـــام[٣]

وامتطــى رأيــا عقيمــاً أغبــرا   كالجَهَـــام

ليتــه مــا انــسلَّ لــيلاً وانبــرى   في احتدام[٤]

فــي مغـــاني آل هـــود وثبـــا   للـــــصيالِ

هــزَّ جِـذعَ الأمــن ألقـى الطُّنبـا   فـي اخـتلالِ

(١) لما حاصر عبد الرحمن مدينة غرناطة، وهي آخر ما التجأ إليه يوسف الفهري، اضطر يوسف إلى الصلح، فصالحه على شروط، منها: وضع ابنيه عند عبد الرحمن رهن إخلاصه الدائم.

(٢) أحرز ابنيه: أي: أخذ عبد الرحمن ابني يوسف رهينتين ليضمن وفاء أبيهما بعهد الصلح، والرهق من معانيه: الظلم والكذب، يريد: الغدر ونقض الميثاق.

(٣) لم تطل ليوسف حياة الراحة، فنقض العهد سنة ١٤١ بعشرين ألفاً من البربر، فالتحق بطليطلة، إلا أن عبد الرحمن قام له حتى جيء إليه برأسه.

(٤) انسلّ: انطلق في الخفاء. والاحتدام: اشتداد الغيظ. يقال: احتدم صدره غيظاً، وتحدم؛ أي: تغيظ.

أرهــق ابنيــه جفــاء وهفــا　　للرياســـــهْ
مــا تحــامى أن يكــون هــدفا　　للـــــسياسهْ
ركبــت مــن قتــل هــذا سـرفا　　في الـشراسهْ
وطــوت هـــذا ليبقـــى حقبــا　　فـــي اعتقــالِ
ســلْ بــه إذ فــرَّ مــاذا ارتكبــا　　مــن محــالِ

* * *

قذفت نــار الـوغى فـي (مــاردَهْ)　　بالـــشرار[1]
أشـــرع الـــصقر قنــاة ســائده　　بانتـــــصار
أطلــق الفهــريُّ رِجــلاً جاهــده　　فـــي الفــرار
لحـــق المـــوت بـــه وا عجبــاً　　للنـــــصالِ
تـــنهض الحتـــفَ إذا مــا نــشبا　　فـــي عقـــالِ

* * *

بلــغ الــصقر مــن العــزِّ أشــدَّه　　واســـــتوى
لــبس الحــزم لمــن صــاعر خــدَّه　　والتـــــوى
هــو لــولا بأســه يحــرس بَنْــدَه　　لانطــــوى
ســـار بالأمـــة شـــوطاً عجبــا　　فـــي اعتــدالِ
لا يُــرى أســـرى بهـــا أو أوَّبــا　　فـــي مـــلالِ

* * *

---

(١) ماردة: كورة واسعة من نواحي الأندلس من أعمال قرطبة.

بعــث العرفــان مــن مرقــدهِ ... فـــي رُواء
وعلت عنـق الهـدى فـي عهـدهِ ... كـــاللولاءِ
ردَّتِ الــشركَ مواضــي جِــدِّهِ ... فـي انــزواء
نفثـت فـي (شـرلمانَ) الرَّهبـا ... كالـسعالي[1]
هابها (المنصور) يخـشى الغلبا ... فـي الـسجالِ

* * *

لقي العمرانَ مقـصوص الجنـاح ... خـــــاملا
راشه فانساب فـي تلـك البطـاح ... جـــــائلا
يضبط الشكوى كخصر في وشاح ... عـــــادلا
يمتطـي المنبـر يُلقـى خُطبـا ... ذاتَ بـــالِ
يقــدمُ النــاسَ إمامــاً مجتبـى ... بابتهـــالِ

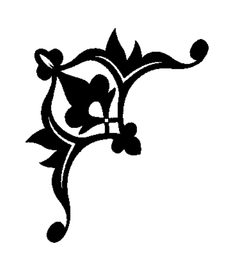
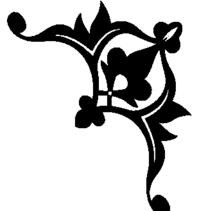
* * *

رحـم الله الفتـى أنـضى العتـاقْ ... فـي العـلا[2]
وغـدا إن عُـدَّ فرسـانُ الـسباقْ ... أوّلا
شرب الحكمة بالكـأس الـدِّهاقْ ... عَلـــلا
عزمــه كــالفجر يفـري الغيهبـا ... فـي تعــالي
فهــو جنــديٌّ سياســيٌّ ربــا ... فـي كمــالِ

---

(١) السعالي: جمع السعلاة، وهي الخبيثة من الجن.

(٢) العتاق: جمع عتيق، وهر الفرس الكريم. وأنضى العتاق: أهزلها بالسير.

أبو داود وكتابه «السُّنن»[١]

من أئمة الحديث وأعلامه: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني[٢] المعروف بأبي داود.

ولد أبو داود سنة ٢٠٢ اثنتين ومئتين، وأقبل على علوم الحديث حتى صار من أكابر حفاظه، والراسخين في العلم بمراتب الأحاديث وعللها، وما يستنبط منها من الأحكام والآداب.

رحل لطلب العلم، وتجوّل في البلاد، فكتب عن علماء العراق والحجاز والشام ومصر والجزيرة وخراسان. وفي سنة ٢٧٥ التمس منه أبو أحمد الموفق أخو الخليفة بعد فتنة الزنج أن يقيم بالبصرة؛ ليعمرها بما أوتي من العلم، فأقام بها إلى أن توفي في منتصف شوال سنة ٢٧٥.

كان أبو داود إماماً في الحديث، بالغاً فيه الذروة، قال الحافظ موسى ابن إبراهيم: خلق أبو داود في الدنيا للحديث، وفي الآخرة للجنة. وقال الحاكم أبو عبدالله: أبو داود إمام أهل الحديث بلا مدافعة.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء السادس من المجلد السادس.

(٢) وهي سجستان المعروفة في خراسان، وما ذكره بعضهم من أنه من قرية بالبصرة يقال لها: سجستان، لم يذكره أحد من الحفاظ.

ولم يكن أبو داود محدثاً فحسب، بل كان محدثاً فقيهاً، وقد عده الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في «طبقات الفقهاء» من جملة أصحاب الإمام أحمد بن حنبل. وقال ابن حبان: أبو داود أحد أئمة الدنيا فقهاً، وعلماً، وحفظاً، ونسكاً، وورعاً، وإتقاناً.

وكان أبو داود يشبه الإمام أحمد بن حنبل في هديه وسمته، وروى عنه أحمد بن حنبل فَرْدَ حديث، فكان أبو داود يفخر بذلك، وكان أبو داود يقول: خير الكلام ما دخل الأذن من غير إذن.

ومما يشهد بحلالة قدره في علم الحديث: كتاب «السنن» الذي هو أحد الصحاح الستة، وهو يشتمل على أربعة آلاف وثمان مئة حديث، انتخبها من خمس مئة ألف حديث كتبها عن رسول الله ﷺ، ولم يورد في هذا الكتاب إلا الصحيح، أو ما يقارب الصحيح، وقال في رسالة بعث بها إلى أهل مكة: «وليس في كتاب السنن الذي صنفته عن رجل متروك الحديث شيء».

قصد الإمام البخاري في «جامعه» تخريج الأحاديث الصحيحة المتصلة، وإفادة ما يؤخذ من الأحاديث من الأحكام أو الآداب، أو التفسير أو السيرة، وقصد الإمام مسلم في «جامعه» تدوين الأحاديث الصحيحة من غير تعرض لوجوه الاستنباط. وقصد أبو داود جمع الأحاديث التي استند إليها الفقهاء، وجعلوها مآخذ للأحكام، فجمع في «سننه» الصحيح، والحسن، وإذا أورد هذا حديثاً ضعيفاً، صرح بضعفه.

فكتاب «السنن» لأبي داود جمع أحاديث الأحكام، ورتبها أحسن ترتيب، ونظمها أحسن تنظيم، ولما أتم تأليفه، عرضه على الإمام أحمد بن حنبل، فاستجاده، واستحسنه، ولما اطلع عليه إبراهيم الحربي، قال: «أُلِين لأبي

داود الحديث، كما ألين لداود الحديد».

وقال النووي في قطعة كتبها من شرحه على هذه السنن: ينبغي للمشتغل بالفقه وغيره الاعتناء بسنن أبي داود، وبمعرفته التامة؛ فإن معظم أحاديثه يحتج بها، مع سهولة تناوله، وتلخيص أحاديثه، وبراعة مصنفه، واعتنائه بتهذيبه.

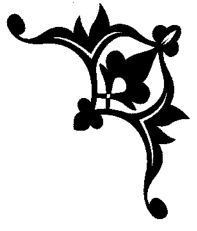
وقال ابن الأعرابي: لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلا المصحف الذي فيه كتاب الله، ثم هذا الكتاب ـ يعني: سنن أبي داود ـ، لم يحتج معها إلى شيء من العلم.

وقال أبو سليمان الخطابي في مقدمة شرحه[1] لهذه السنن: وقد جمع أبو داود في كتابه هذا من الحديث في أصول العلم وأمهات السنن وأحكام الفقه ما لا نعلم متقدماً سبقه إليه، ولا متأخراً لحقه فيه.



(١) يسمى: «معالم السنن»، وقد شرع في طبعه بحلب، وانتهى طبع جزأين منه: الأول والثاني.





صفحة من
حياة أبي الحسن الأشعريّ[1]

التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى وقد أورث الناس ديناً ساطع الحجج، محكم الآيات، فساروا في ضوئه أمة واحدة، لا يختلفون في شيء يرجع إلى العقائد حتى آخر خلافة عثمان رضي الله عنه؛ حيث حميت تلك المناقشات السياسية، واتخذها مرضى القلوب أمثال عبدالله بن سبأ ذريعة إلى فتنة يكيدون بها الإسلام، ففتحوا بابها بقتل الخليفة، ونشأت خلافة علي ـ كرم الله وجهه ـ، وغبار الفتنة ثائر، فتولدت تحت مثاره آراء سياسية، ثم جعلت تلك الآراء تتحول إلى مذاهب دينية، ودبّ في النفوس مرض الاختلاف، ومن هذا الاختلاف ما يرجع إلى أصول العقائد، فيحل عروة الإيمان، ومنه ما يرجع إلى فروعها، فلا يزيد على أن يسمى: انحرافاً عن الصواب.

كثرت الفرق، وتعددت الألقاب، فوهن حبل الاتحاد الإسلامي، ولولا هذا التفرق، لبلغ الإسلام من القوة فوق ما بلغ، وارتقى في السيادة ذروة فوق التي ارتقى.

ومن هذه الفرق: فرقة يغلون في التشيع للإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ.

ومن أبعدهم في هذا الغلو: نزعة السبئية أتباع عبدالله بن سبأ الذي

(١) مجلة «نور الإسلام» ـ الجزء الخامس من المجلد الثالث.

ادعى لعلي ـ عليه السلام ـ وصف الإلهية، فنفاه علي إلى المدائن، ويقال: إنه كان يهودياً، فتظاهر بالإسلام ليكيد له بمثل هذه الدعوى.

ويقابل هذه الفرقة: فرقة يدينون بكراهة علي ﷺ، وهم الخوارج[1]، ونشأ هذا المذهب من جماعة كانوا مع علي في حرب صفّين، ثم خرجوا عليه عقب قضية التحكيم.

ومن هذه الفرق: فرقة يبالغون في إثبات الوعد، حتى قال بعضهم: لا يضر مع الإيمان معصية، وهم المرجئة.

أما الإرجاء الذي ينسب إلى بعض فضلاء التابعين؛ كالحسن بن محمد بن الحنفية[2]، فمعناه: عدم القطع على إحدى الطائفتين المقتتلتين من العلويين والأمويين بكونها مخطئة أو مصيبة، وإرجاء أمرهما؛ أي: تأخيره وتفويضه إلى الله تعالى، وهو بهذا المعنى لا يمس جانب الإيمان، ولا يعد صاحبه عند أهل السنّة موضعاً للعيب.

ومن هذه الفرق: فرقة يبالغون في إثبات القدرة للإنسان، وينكرون إضافة الخير والشر إلى القدر، وهم القدرية، وأول من تكلم بهذا: معبد بن عبدالله الجهني الذي خرج مع ابن الأشعث، ووقع في يد الحجاج، فقتله سنة ٨٠.

ومن هذه الفرق: فرقة لا يثبتون للعبد قدرة على الفعل، لا مؤثرة، ولا كاسبة، وهم الجبرية، وأول من ظهر بهذا المذهب: جهم بن صفوان

---

(١) الصفرية، والأزارقة، والنجدية، والعجاردة.

(٢) توفي سنة ٩٩، أو ١٠٠، وعبارته في الكتاب الذي يقال إنه وضعه في الإرجاء: «ونوالي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، ونجاهد فيهما؛ لأنهما لم تقتتل عليهما الأمة، ولم نشك في أمرهما، ونرجئ من بعدهما ممن دخل في الفتنة، فنكل أمرهم إلى الله».

الذي خرج مع الحارث بن سريح على بني أمية في أواخر دولتهم، ووقع في قبضتهم بعد انهزام الحارث، وقُتل سنة ١٢٨، أو ١٣١.

ومن هذه الفرق: فرقة يشبِّهون الله ـ وهو واجب الوجود ـ ببعض مخلوقاته، وهم المشبهة، وممن تعزى إليه هذه البدعة: الجعد بن درهم مؤدبُ مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية.

ومن غلاة المشبهة: الكرامية أتباع محمد بن كرام[1] وهو شيخ نشأ في سجستان، ثم دخل نيسابور، وباح بالتجسيم، فحبسه عبدالله بن طاهر، ثم أطلقه، فتخلص إلى القدس الشريف، وهناك توفى سنة ٢٥٦.

ومن هذه الفرق: فرقة يؤولون القرآن والسنّة على غير ما يراد منهما؛ مكراً بالدين، وصرفاً للناس عن هدايته، وهم الباطنية. وائتمار مَن أصلهم المجوسية بالكيد للإسلام وقع ـ على ما يقصه أبو بكر بن العربي[2] ـ في عهد البرامكة، ولكن تأويل الظواهر على وجوه تعطل أحكام الشريعة، وتذهب ببهاء حكمتها، ظهر فيما بعد؛ ومن زعماء هذه النحلة: حمدان قرمط المتوفى سنة ٢٦٤، ومنه أخذ الباطنية لقب (القرامطة).

ومن أذناب هذه الفرقة اليوم: الطائفة المسماة بالبابية أو البهائية، وكانت قبل هذا تعمل في خفاء، فسرى وباؤها في نفوس كثير من المسلمين الغافلين، حتى أخذ بعض زعماء الغرور، فجاهروا بشيء مما يسرون، فانكشفت للناس سريرتها، وافتضح أمرها، فلا تقوم لدعايتها بعد هذا ـ إن شاء الله ـ قائمة.

ومن هذه الفرق: فرقة المعتزلة، ومن رؤوسها: أبو حذيفة واصل بن

---

(١) ضبط بفتح الكاف وتشديد الراء، وضبطه آخرون بكسر الكاف وتخفيف الراء.

(٢) كتاب «القواصم والعواصم».

عطاء الغزال، وصاحبه عمرو بن عبيد، وكانا يجالسان الحسن البصري المتوفى سنة ١١٦، ثم اعتزلاه في نفر كانوا على رأيهما، وظهر بعد هؤلاء طبقة أخرى، من زعمائها: إبراهيم بن سيار النظام المتوفى سنة ٢٢١، ومحمد بن الهذيل العلاف المتوفى سنة ٢٣٥، وأحمد بن أبي داود المتوفى سنة٢٤٠، وبشر المريسي المتوفى سنة ٢١٨، ثم عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى سنة ٢٥٠، وظهر بعد هؤلاء طبقة من رجالها: أبو علي محمد الجبائي المتوفى سنة ٣٠٣، وهو أستاذ أبي الحسن الأشعري، وأبو القاسم عبدالله الكعبي المتوفى سنة ٣١٧، وإليه تنسب الفرقة الكعبية، وأبو هاشم عبد السلام بن أبي علي الجبائي المتوفى سنة ٣٢١، وإليه تنسب الفرقة البهشمية، فالكعبي وأبو هاشم كانا معاصرين لأبي الحسن الأشعري.

وظهر مذهب الاعتزال لذلك العهد؛ إذ كان لكثير من زعمائه البراعة في البيان، والوجاهة عند رجال الدولة، فعمرو بن عبيد كان رفيع المنزلة عند المنصور، وكان المجلس الذي يعقده البرامكة لأصحاب المقالات ينتظم من أبي الهذيل العلاف، وإبراهيم النظام، وبشر بن المعتمر، وجعفر بن حرب، وثمامة بن أشرس، وجعفر بن بشر، وكلهم من زعماء الاعتزال. وأحمد بن أبي دؤاد كان وجيهاً لدى المأمون، وتولى قاضي القضاة في خلافة المعتصم، وهو الذي امتحن الإمام أحمد بن حنبل، وحاول إلزامه القول بخلق القرآن الكريم، وكذلك كان أبو دؤاد في عهد الواثق؛ ولما تقلد المتوكل الخلافة، أصيب ابن أبي دؤاد بفالج، فخلفه في القضاء ابنه محمد بن أحمد، ثم صرفه المتوكل عن القضاء، وولى مكانه يحيى بن أكثم، وكان يقتدي بمذهب أهل السنة.

ومن أسباب ظهور الاعتزال: أن بعض زعمائه كانوا يتصدون للرد

على الخارجين عن الملة من نحو الملاحدة والطبعيين، كما ردّ واصل الغزالي على المانوية، ورد أبو هاشم بن أبي علي الجبائي على القائلين بالطبائع، ورد أبو الحسين بن أبي عمر الخياط على ابن الراوندي في كتاب «الانتصار»، وكانوا يدرسون الفلسفة، ويتناولون آراء رجالها بالنقض، فلأبي هاشم هذا كتاب «النقض على أرسطاليس في الكون والفساد».

ومما نقرؤه في ترجمة النظام: أن جعفر بن يحيى البرامكي ذكر أرسطاليس، فقال النظام: قد نقضت عليه كتابه، فقال جعفر: كيف وأنت لا تحسن أن تقرأه! فقال النظام: أيهما أحب إليك: أن أقرأه من أوله إلى آخره، أم من آخره إلى أوله؟ ثم أخذ يذكره شيئاً فشيئاً، وينقض عليه، فتعجب جعفر منه.

ودراسة المعتزلة للفلسفة أفادت في ردهم على بعض الفلاسفة والملاحدة، ولكن انحرفت ببعض آرائهم عن قصد السبيل، فتعسفوا في تأويل نصوص من الكتاب والسنّة؛ ظناً منهم أن الفلسفة تتعاصى عن قبول ما تدل عليه هذه النصوص، ولم يكن المعتزلة في المسائل التي تعزى إليهم على رأي واحد، بل كانوا يختلفون في بعض الآراء، وقد ينتصب بعضهم لتفنيد آراء بعض، كما ألّف جعفر بن حرب في الرد على أبي الهذيل العلاف كتاباً سماه: «توبيخ أبي الهذيل»، وبالغ في الرد عليه حتى أشار إلى تكفيره.

وزاد مذهب الاعتزال في القرن الثاني والثالث رواجاً أن أهل السنّة كانوا لا يعنون بمجادلتهم على طريقة نظرية يرخي فيها الخصم لخصمه العنان، ثم يدفع شبهه شبهة بعد أخرى، وينقض أدلته دليلاً بعد دليل، وكان الإمام أحمد بن حنبل ﷺ يكره التصدي لمجادلة المبتدعين، حكى عنه الغزالي

في كتاب «المنقذ»: أنه أنكر على الحارث المحاسبي تصنيفه في الرد على المعتزلة، فقال الحارث: الرد على البدعة فرض، فقال أحمد: نعم، ولكن حكيتَ شبهتهم أولاً، ثم أجبتَ عنها، فلا يؤمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه، ولا يلتفت إلى الجواب، أو ينظر إلى الجواب، ولا يفهم كنهه. قال الغزالي: وما ذكره أحمد حق، ولكن في شبهة لم تنتشر ولم تشتهر، أما إذا انتشرت، فالجواب عنها واجب، ولا يمكن الجواب إلا بعد الحكاية.

كان أهل السنّة من ناحية التفقه في الدين وتقرير أصول الأحكام يبسطون القول إلى أبعد غاية، أما موقفهم أمام الفرق التي تتكلم في العقائد، وما يتصل بها، فيشبه موقف من يستخف بقوة خصومه، فلا يعد لهم ما استطاع من قوة، أو لا يعمل في دفاعهم ما لديه من سلاح، حتى يجوسوا خلال أرضه، وينقصوها من أطرافها.

سادت في القرن الثالث الآراء المخالفة لمذهب السلف، حتى ظهر أبو الحسن الأشعري، فأحسن التعبير عن مذهب أهل السنّة، وانقلب علم الكلام إلى هيئة غير هيئته التي خلعها عليه المعتزلة والمرجئة والمشبهة والقدرية، والذي يستطيع أن يجاهد، فيقلب أمماً كثيرة من وجهة إلى أخرى، جدير بأن يعدّ في أعاظم الرجال، فإذا عرضنا عليك صحيفة من حياة أبي الحسن الأشعري، فإنما نعرض عليك شيئاً من سيرة رجل كان له في إصلاح النفوس وتقويم العقول جهاد أي جهاد.

*** نسب أبي الحسن الأشعري ومولده:**

هو علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله ﷺ؛

والأشعري نسبة إلى أشعر أبي قبيلة باليمن، فنسبه عربي صريح، ومولده بالبصرة سنة ٢٦٠ ستين ومئتين.

*** نشأته العلمية:**

نشأ الأشعري بالبصرة، وهي يومئذ زاهية بالعلوم الدينية والعربية وفن الكلام، فأخذ السنّة عن الحافظ زكريا بن يحيى الساجي، وأبي خليفة الجمحي، وسهل بن نوح، ومحمد بن يعقوب المقري، وعبد الرحمن بن خلف الضبي، وقد أكثر في تفسيره من الرواية عن هؤلاء، ثم رحل إلى بغداد، وأخذ عمن لقيه فيها من علماء الحديث.

ودرس علم الكلام على مذهب المعتزلة، فكان يتلقى على طائفة من كبارهم؛ مثل: أبي علي الجبائي، والشحام، والعطوي، وكان متقدماً في هذا العلم على أقرانه، وسنحدثك قريباً عن براءته من مذهب المعتزلة، ورجوعه إلى مذهب أهل السنة.

وإذا لم يُذكر الأشعري في طبقات المحدثين، فلأنّ همته لم تكن مصروفة إلى الإكثار من الرواية، وإنما كان يبذل جهده في تعرف آراء الفرق، والغوص على الحجج التي تنقض شبههم، وتدمغ باطلهم، فلا بأس عليه مما وصفه به بعض الحنابلة من أن خبرته بمقالات أهل الكلام أوسع من خبرته بمذاهب أهل الحديث، وكثير ممن عاصروه، أو تلقوا عنه، قد شهدوا له بغزارة العلم، وحسن التصرف فيما يعلم، وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني: كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الباهلي كقطرة في جنب البحر، وسمعت الباهليّ يقول: كنت في جنب الأشعري كقطرة في جنب البحر.

وهذه الشهادة ـ وإن كانت صادرة عن تواضع من أبي الحسن الباهلي ـ

لا تخلو من إيماء إلى عظم منزلة أبي الحسن الأشعري في العلم.

*** مذهبه في أصول الدين:**

كان أبو الحسن الأشعري في مبدأ أمره على مذهب الاعتزال، ولزم أبا علي الجبائي سنين كثيرة، ثم اهتدى إلى أن الحق في جانب أهل السنّة، وأراد أن يكون رجوعه عن الاعتزال علانية، فأتى المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة، ورقي كرسياً، ونادى بأعلى صوته قائلاً: من عرفني، فقد عرفني، ومن لم يعرفني، فأنا أعرّفه بنفسي: أنا فلان بن فلان، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار (يعني: في الدار الآخرة)، وأن أفعال الشر أنا أفعلها، وأنا تائب مقلع معتقد للرد على المعتزلة.

والواقع أنه لم يأت بمذهب جديد، وإنما صار إلى مذهب السلف، وما كان عليه الأئمة الراشدون، فقام بتأييده، والنضال عنه، وإنما ينسب إليه المتمسكون بمذهب أهل السنّة؛ لأنه زاد المذهب حججاً، وألف فيه كتباً كثيرة، وقد صرح في كتاب «الاستبانة» بأنه على طريقة السلف، فقال: «وديانتنا التي بها ندين: التمسك بكتاب الله، وسنّة نبيه ﷺ، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان عليه أحمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولمن خالف قوله مجانبون»، وعوده إلى مذهب أهل السنّة بعد الاعتزال شاهد ـ كما قال القاضي عياض في «المدارك» ـ على ثبات قدمه، وصحة يقينه في التزام السنّة؛ إذ لم يلزمها لأنه نشأ عليها، ولا اعتقدها تقليداً.

*** مذهبه في الأحكام العملية:**

تنازع بعض أصحاب المذهب أبا الحسن الأشعري، كلٌّ ينسبه إلى

مذهبه، ذكره ابن السبكي في «طبقات الشافعية»، وقال: (قد زعم بعض الناس أن الشيخ كان مالكي المذهب، وليس بصحيح، وإنما كان شافعياً، تفقه على أبي إسحاق المروزي[1]، نص على ذلك الأستاذ أبو بكر بن فورك في «طبقات المتكلمين»، والأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني فيما نقله عنه الشيخ أبو محمد الجويني «في شرح الرسالة»).

وذكره القاضي عياض في كتاب «المدارك» على أنه من فقهاء المالكية، وقال: ذكر محمد بن موسى بن عمران: أن الأشعري كان مالكياً: وقال: ذكر لي بعض الشافعية: أنه كان شافعياً حتى لقيت الشيخ الفاضل رافعاً الحمال الشافعي، فذكر لي عن شيوخه: أن أبا الحسن كان مالكياً، وكان مذهب مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في وقته شائعاً في العراق، أيام إسماعيل[2] ابن إسحاق. والذي يظهر: أن أبا الحسن الأشعري لم يؤلف كتاباً في الأحكام يستفاد منه أنه مستقل النظر في الأحكام، أو أنه مقتد بأحد الأئمة.

* **قوته على المناظرة:**

تمرن الأشعري على المناظرات منذ كان على مذهب الاعتزال، حتى إن أستاذه أبا علي الجبائي كان إذا حضرت مناظرة، قال له: نُبْ عني، وكان الجبائي صاحب قلم، ولم يكن قوياً على المناظرة في المجلس.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يقصد إلى مواطن المعتزلة ليناظرهم، فقيل

---

(١) هو أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي، إمام في فقه الشافعية جليل، رحل إلى مصر في أواخر عمره، وتوفي بها سنة ٣٤٠، ودفن بالقرب من تربة الإمام الشافعي.

(٢) هو القاضي إسماعيل أحد أعلام المالكية المتوفى سنة ٢٨٢.

له: كيف تخالط أهل البدع، وتقصدهم بنفسك، وقد أمرت بهجرهم؟ فقال: هم أولو رياسة، منهم الوالي والقاضي، ولرياستهم لا ينزلون إليّ، فإذا كانوا هم لا ينزلون إليّ، ولا أسير أنا إليهم، فكيف يظهر الحق، ويعلمون أن لأهل السنّة ناصراً بالحجة؟!.

وكان لا يبتدئ مناظرته بالسؤال، بل يقف موقف المجيب المدافع، حضر الأستاذ أبو عبدالله بن خفيف مناظرة بين الأشعري وبعض مخالفيه، فقضى العجب من علمه وفصاحته، وقال له: لم لا تسأل أنت ابتداء؟ فقال الأشعري: أنا لا أكلم هؤلاء ابتداء، ولكن إذا خاضوا في ذكر ما لا يجوز في دين الله، رددنا عليهم بحكم ما فرض الله ـ سبحانه وتعالى ـ علينا من الرد على مخالفي الحق.

وجرت مناظرات بين أبي الحسن الأشعري والجبائي، منها: مناظرة في قول الجبائي كسائر معتزلة البصرة: إنه يجب على الله تعالى مراعاة الأصلح؛ بمعنى: الأنفع للعبد، فسأل الأشعري أبا علي الجبائي عن ثلاثة إخوة عاش أحدهم في الطاعة، وأحدهم في الكفر والمعصية، والآخر مات صغيراً. فقال له الجبائي: يثاب الأول، ويعاقب الثاني، ولا يعاقب الثالث ولا يثاب. فقال الأشعري: إن قال الثالث: يا رب! هل عمرتني، فأصلح، فأدخل الجنة كما دخلها أخي المؤمن؟! فأجاب الجبائي بأن الرب يقول: كنت أعلم أنك لو عشت، لفسقت، فدخلت النار. ثم قال الأشعري: فإن قال الثاني: يا رب! لمَ لم تمتني صغيراً حتى لا أعصي، فلا أدخل النار كما أمتَّ الثالث؟! فانقطع الجبائي.

فمعتزلة البصرة هم الذين يرون وجواب مراعاة الأصلح بمعنى الأنفع

للعبد، أما معتزلة بغداد، فيذهبون في تفسير الأصلح الذي يجب على الله مراعاته إلى معنى: الأوفق في الحكمة والتدبير، وليس هذا المذهب بموضع المناظرة السالفة؛ لأن الحكمة لا تتبع جلب المنفعة، أو درء المفسدة الشخصية، وإنما تقوم على ما يقتضيه حسن النظام العام للخليقة.

*** أخلاقه وتقواه:**

كان في أبي الحسن دعابة، وكان له مع هذه الدعابة غيرة على الحق حامية، وتلك الغيرة هي التي تدفعه إلى مقارعة مخالفيه، غيرَ مبال بما كان لهم من جاه أو رياسة، قال أحد أصحابه: «إنه كان حضر معه مجلساً في جماعة من المبتدعة، فقام فيه لله مقاماً حسناً، وكسر حجتهم، فلما خرج، قلت له: جازاك الله خيراً، قال: وما ذاك؟ قلت: لمقامك هذا لله تعالى ونصر دينه، فقال: يا أخي! إنا ابتلينا بأمراء سوء أظهروا بدع المخالفين، ونصرها، فوجب علينا القيام لله، والذبِّ عن دينه حسب الطاقة، فمسألة من معرفة ربك، وما تطيعه به، وتتقرب به إليه، أجدى عليك من هذا».

وهذه القصة تدلك على أنه كان يؤثر الحق على رضا الأمراء، وأنه كان من التواضع بحال من يذكر أن الازدياد من معرفة الله والإقبال على فعل الطاعات يفضل ما كان يشتغل به من مقارعة الابتداع على طريقة علم الكلام.

وفي أبي الحسن خصلة يعز في أهل العلم وجودها، وهي الرجوع عن الرأي عندما يستبين الحق، وشاهد هذا: أنه نفض يده من مذهب الاعتزال علانية عندما استبان أن الحق في جانب أهل السنّة؛ وكان قد صنف في أيام اعتزاله كتاباً كبيراً نصر فيه مذهب المعتزلة، ولما صار إلى مذهب أهل السنّة ألف كتاباً في نقض ذلك الكتاب الذي نصر فيه مذهب الاعتزال؛ وقد يقول

في بعض مؤلفاته: ألفنا كتاباً في مسألة كذا، ورجعنا عنه، ونقضناه، فمن وقع إليه، فلا يعولن عليه.

وكان ـ رحمه الله ـ متجملاً بالحياء والورع؛ قال أحمد بن علي الفقيه: خدمت الإمام أبا الحسن بالبصرة سنتين، وعاشرته ببغداد إلى أن توفي، فلم أجد أورع منه، ولا أغض طرفاً، ولم أر أحداً أكثر حياء منه في أمور الدنيا، ولا أنشط منه في أمور الآخرة. وكان ينفق من غلة ضيعة جده بلال ابن أبي بردة.

*** خصومه:**

خصوم الرجل على قدر عظم شأنه، فكلما ارتفع الرجل درجة، أو ظهرت له مزية، تألم لها من أحسوا أنفسهم العجز عن أن يبلغوا شأوه، فليس من العجيب أن يكون لمثل الأشعري خصوم يناوئونه، ويعزون إليه من المقالات ما لم ينطق به لسانه، ولم يخطر على قلبه، وليس من المعقول أن يقف الأشعري لطوائف مختلفة المذاهب والآراء، وقفة من لا يعرف ذلك الذي يسميه الناس رهبة أو إحجاماً، ويرجو مع هذا أن يمضي في سلامة من أن يتحدثوا عنه في غير أمانة.

ألصق به خصومه أقوالاً لم تسمع منه مناظرة، ولا توجد له في كتاب، كما عزوا إليه: أنه قال: إن المعجز هو كلام الله تعالى الذي لم يزل غير مخلوق، ولا نزل إلينا: ولا سمعناه قط، وقد ساق الأستاذ ركن الدين أبو عبدالله محمد الجويني في كتاب «عقيدة الإمام المطلبي» أشياء من هذه الأراجيف، وقال: «وقد تصفحت ما تصفحت من كتبه، وتأملت نصوصه في هذه المسائل، فوجدتها كلها على خلاف ما نسب إليه». ثم قال: «ولا عجب

أن اعترضوا عليه واخترصوا؛ فإنه ـ رحمه الله تعالى ـ فاضحُ القدرية وعامة المبتدعة، وكاشفُ عوراتهم، ولا خير فيمن لا يعرف حاسدة».

وتحدث القاضي عياض في كتاب «المدارك» عمن يناوئون الأشعري، فنسب طائفة منهم إلى الغلو في ترك التأويل حتى وقعوا في التشبيه، ثم قال: «وأكثر من شنع عليه بالأندلس: ابن حزم؛ فإنه ملأ كتابه عليه وعلى أئمة أصحابه كذباً وتشانيع باطلة، وذلك في كتابه المسمى: بالنصائح والفضائح».

ولأبي العباس أحمد بن محمد بن عبد المنعم القرطبي رسالة ردَّ بها على شخص تورط في هجو الأشعري، تسمى: «زجر المفتري على أبي الحسن الأشعري»، قال في طالعها:

أسير الهوى ضلت خطاك عن القصد
فها أنت لا تهدى لخير ولا تهدي

سللت حساماً من لسانك كاذباً
على عالم الإسلام والعلم الفرد

تمرست في أعراض بيت مقدس
رمى الله منك الثغر بالحجر الصلد

ومما قال في وصف الأشعري:

وسلَّ حساماً من بيان فهومه
فرد سيوف الغي مغلولة الحد

وأبدى علوماً ميزت فضل فضله
كتمييز ذي البردين والغرس الورد

فجاءت مجـيء الـصبح والـصبح واضـح
وسارت مسير الشمس والشمس في الـسعد
سللن سـيوف الحـق فـي مـوطن الهـدى
فغــادرن صــدعى الملحــدين بــلا لحــد
وأيـــدن ديـــن الله فـــي أفـــق العـــلا
بـــلا منـــصل عـــضب ولا فـــرس نَهـــد
وأمـضين حكـم النقـل والعقـل فـاحتوى
كــلام إمـــام الحـــق مجـــداً علـــى مجـــد

* **أنصاره :**

قلنا فيما سلف: إن الأشعري لم يبتدع مذهباً جديداً، وإنما هو مقرر لمذهب السلف المبني على الوقوف عند نصوص الكتاب والسنّة، وترك تأويلها حيث لم يعارضها قاطع من معقول أو محسوس، فمزية الأشعري أنه بسط البحث والمناضلة عنها بالحجج النظرية؛ أي: على طريقة علم الكلام، وهي الطريقة التي مكَّنته من الظهور على من يدرسون أو يدَّعون الفلسفة، ويتعلقون في الجدال عن مذاهبهم بشيء من آرائها، ولأخذه بظاهر الكتاب والسنّة، وتصديه لمدافعة كل فرقة شاذة أو ضالة بمثل سلاحها، فكان لمؤلفاته الوقع الحسن في نفوس أكثر أهل العلم من أتباع الأئمة.

قال القاضي عياض في كتاب «المدارك»: «فلما كثرت تآليفه، وانتفع بقوله، وظهر لأهل الحديث والفقه ذبه عن السنن والدين، تعلق بكتبه أهل السنّة، وأخذوا عنه، ودرسوا عليه، وتفقهوا في طريقه، وكثر طلبته وأتباعه لتعلم تلك الطرق في الذَّبِّ عن السنّة، وبسط الحجج والأدلة في نصر الملة».

وقد ينساق أبو الحسن الأشعري في مجادلة الخصوم إلى آراء لا تمس أصول العقائد، ولا ترجع إلى صريح القرآن أو السنّة، وأكثرُ ما يخالفه فيه بعض علماء السنّة الذين يجلونه؛ كإمام الحرمين وغيره من الراسخين في العلم، عائد إلى هذا القبيل.

أنكر بعض أهل العلم على الإمام الرازي مناقشته للأشعري في بعض مؤلفاته فقال ابن السبكي: والإمام الرازي لا ينكر عظمة الأشعري، كيف وهو على طريقته يمشي، وبقوله يأخذ؟! ولكن لم تبرح الأئمة يعترض متأخرها على متقدمها، ولا يشينه ذلك، بل يزينه.

ومن معاصري الأشعري: محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي المتوفى سنة ٣٣٣، وهو من أئمة أهل الحق، وبينه وبين الأشعري خلاف في مسائل يعذر كل منهما صاحبه في الاجتهاد فيها، ولا يراه حائداً بها عن مذهب أهل السنّة.

*** مؤلفاته:**

لأبي الحسن مؤلفات كثيرة، حتى قيل: إنها تزيد على مئتي مصنف، من هذه المؤلفات كتاب «الفصول» في الرد على الخارجين على الملّة من الملحدين والفلاسفة والطبيعيين، والدهريين، وأهل التشبيه والقائلين بقدم الدهر، على اختلاف مقالاتهم وأنواع مذاهبهم، ثم رد على البراهمة، واليهود والنصارى والمجوس، وهو كتاب كبير يشتمل على اثني عشر كتاباً.

ومنه كتاب «الموجز»، وهو يشتمل على اثني عشر كتاباً على حسب تنوع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملة والداخلين فيها، وآخره كتاب الإمامة.

ومنها تفسيره المسمى بالمختزن، قال القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب «القواصم والعواصم»: وانتدب الأشعري إلى كتاب الله، فشرحه في خمس مئة مجلد، وسماه بالمختزن، ومنه أخذ الناس كتبهم، ومنه أخذ عبد الجبار الهمداني كتابه في تفسير القرآن الذي يسمى بالمحيط في مئة سفر، ثم ذكر ابن العربي: أن الصاحب بن عباد بذل عشرة آلاف دينار لخازن الكتب في بغداد، فألقى النار في الخزانة، فاحترقت الكتب، واحترق من بينها «المختزن»، ولم تكن منه إلا نسخة واحدة، فنفدت من أيدي الناس. وكان الصاحب بن عباد على مذهب المعتزلة، ولأبيه عباد بن عباس كتاب في أحكام القرآن ينصر فيه مذهب الاعتزال.

وليس بين أيدينا من مؤلفات أبي الحسن غير كتاب «الإبانة»، وهو كتاب قرر فيه عقيدة السلف، ورد على ما يخالفها من آراء اعتزالية، ومنه يقف القارئ على طريقة الشيخ في الرد على مخالفيه، ويعرف كيف كان يجمع في الاستدلال بين السمع والعقل.

* **وفاته:**

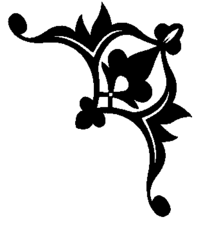
توفي أبو الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ، في بغداد سنة أربع وعشرين وثلاث مئة.

قال أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي: لما قرب أجل أبي الحسن الأشعري، دعاني، فأتيته، فقال: اشهد على أني لا أكفّر أحداً من أهل هذه القبلة؛ لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف عبارات. ومات في حجر أبي علي هذا، وكانوا يصفونه عند النداء لجنازته بناصر الدين، ودفن في تربة بين الكرخ وباب البصرة.

1399

قال أبو الحسن القابسي: لقد مات الأشعري يوم مات وأهل السنّة باكون عليه، وأهل البدع مستريحون منه. أفاض الله على قبره رحمة ونوراً.

❒ ❒ ❒

القاضي
أبو الحسن الجرجاني[1]

نعرض على حضرات القراء صفحة من حياة شخص غزير العلم، رائع الأدب، صافي الذوق، كامل الخلق، هو القاضي أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني، من أعيان القرن الرابع.

نشأ أبو الحسن في «جرجان»، وتقلب في البلاد للقاء كبار العلماء والأخذ عنهم، فدخل «نيسابور»، وطاف العراق والشام وغيرها، وأحرز في العلوم والآداب منزلة يشار إليها بالبنان. قال مؤرخوه: «لم يزل أبو الحسن يتقدم حتى ذكر في الدنيا»، ووصفه صاحب «يتيمة الدهر» فقال: «هو فرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حدقة العلم».

وبعد أن بلغ الذروة في العلم والآداب، عرج على حضرة الصاحب بن عباد، فعرف قدره، وتمسك بصحبته، وكاد من شدة اختصاصه به لا يستطيع مفارقته، فكان لا يفارقه كما قال الصاحب في بعض رسائله: «مقيماً، وظاعناً، ومسافراً، وقاطناً». وتأخذ هذا من كتاب بعث به الصاحب إلى حسام الدولة العباسي تاشي الحاجب يوصيه فيه بمساعدة القاضي في كل ما يحتاج إليه عندما استأذنه في زيارة «جرجان»، فقد فقال: «فإن رأى الأمير أن يجعل من حظوظي الجسيمة عنده تعهد القاضي أبي الحسن فيما يعجل رده، فإني

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الأول من المجلد العشرين.

ما غاب كالمضل الناشد، وإذا عاد كالغانم الواجد، فعل إن شاء الله».

وكان الصاحب يتلقاه في «جرجان» بإقبال وإكرام أكثر مما يتلقاه به في غيرها من البلاد، قال القاضي: وقد استعفيته يوماً من فرط تحفيه بي، وتواضعه لي، فأنشدني:

أكـــرم أخـــاك بـــأرض مولـــده	وأمـــده مـــن فعلـــك الحـــسن
فـــالعز مطلـــوب وملـــتمس	وأعـــزّه مـــا قيـــل فـــي الـــوطن

ثم قال له: قد فرغت من هذا المعنى في قصيدتك العينية، فقلت: لعل مولانا يريد قولي:

وشيدت مجدي بين قومي فلم أقل	ألا ليت قـومي يعلمـون صـنيعي

فقال: ما أردت غيره.

وتولى قضاء «جرجـان» على يد الصاحـب، ثم تولى قاضي القضـاة بالري، واستمر على ذلك إلى أن توفي، وكان حسن السيرة في قضائه.

ويصفه المؤرخون، فنرى فيما يصفونه به خصالاً تعد أصولاً في مكارم الأخلاق؛ كصدق اللهجة، وعزة النفس، وشرف الهمة، ومن شواهد هذا: أبياته المنقطعة النظير في تصوير الاعتزاز بالعلم وسمو الهمة، وهي:

يقولون لي فيـك انقبـاض وإنمـا	رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما
وما كل بـرق لاح لـي يـستفزني	ولا كل أهل الأرض أرضاه منعما
ولم أقض حق العلم إن كان كلما	بـدا طمـع صـيرته لـي سُـلَّما
ولم أبتذل في خدمة العلم مهجتي	لأخدم من لاقيت لكـن لأخـدما
أأشـقى بـه غرسـاً وأجنيـه ذلـة	إذاً فاتباع الجهل قد كـان أحزمـا

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عظموه في النفوس لعظما

وقد لهج بهذا المعنى في شعره، وقال من أبيات:

فإن لم يكن عند الزمان سوى الذي ... أضيق به ذرعاً فعندي له الصبر

وقال توصل بالخضوع إلى الغنى ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر

وللقاضي ديوان شعر، وقد يعرج في شعره على الصاحب بن عباد، أو غيره من أقرانه الذين كانوا يمنحونه الوداد، وينظرون إليه بعين الإجلال، فكان يخاطبهم بلسان الشعر كالمجازاة على ما يلاقي من إسعادهم، وصدق مودتهم له، وقد رأيتم كيف كان الصاحب بن عباد يطلق لقلمه أن يثني عليه بأبلغ الثناء، ويسمي صلة الود بينهما إخاء، ولا يأبى أن يثني عليه في شعره.

قال القاضي: انصرفت يوماً من دار الصاحب قبيل العيد، فجاءني رسوله بعطر العيد، ومعه رقعة بخطه فيها هذان البيتان:

يا أيها القاضي الذي نفسي له ... مع قرب عهد لقائه مشتاقَهْ

أهديت عطراً مثل طيب ثنائه ... فكأنما أهدي له أخلاقَهْ

ونظر القاضي إلى ما يفضي إليه اقتراض المال وصرفه في شهوات النفس من سوء العواقب، فحاول معالجة هذا المرض بحكمة بالغة، فقال:

إذا رمت أن تستقرض المال منفقاً ... على شهوات النفس في زمن العصر

فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها ... عليك وإنظاراً إلى ساعة اليسر

فإن أسعفت كنت الغني وإن أبت ... فكل منوع بعدها واسع العذر

ولم يكن القاضي بارعاً في صناعة الشعر فحسب، بل كان مبدعاً في النثر أيضاً، كما وصفه صاحب «يتيمة الدهر»، فقال: يجمع خط ابن مقلة،

إلى نثر الجاحظ، ونظم البحتري.

وجمع القاضي الجرجاني إلى غزارة العلم ذوقاً سليماً، ونقداً للشعر عادلاً، وبسلامة الذوق والعدل في النقد استطاع أن يخرج كتابه «الوساطة بين المتنبي وخصومه» في صنع حكيم، ووضع بديع، وكان الصاحب بن عباد ألف رسالة في إظهار مساوئ المتنبي، ولم تمنع القاضي الجرجاني صداقته للصاحب أن يؤلف كتاب «الوساطة»، ويسلك فيه مسلك الإنصاف، فيرد كثيراً مما عده الصاحب وغيره من سقطات المتنبي.

ومن قرأ كتاب «الوساطة»، وذكر أن الشيخ عبد القاهر الجرجاني أخذ من القاضي الجرجاني، واغترف من بحره، وكان يفتخر بالانتماء إليه، تنبه لناحية من النواحي التي استمد منها عبد القادر براعته في كتابي «دلائل الإعجاز»، و«أسرار البلاغة».

وإذا كان في المنتمين إلى قبيل العلماء من إذا أدرك شهادة أو منصباً أو وجاهة، قلَّ إقباله على العلم، وأصبح يأنس بلقاء الناس، ويسعى إليه ما استطاع، ولا يبالي أن يقضي الساعة أو الساعتين في محادثات تمضي مع الوقت دون أن يكون لهما أثر في نماء علم، أو إتقان عمل، فإن القاضي الجرجاني من الطبقة التي تلذ العلم، وتأنس بالكتاب، وترى في ذلك غنيمة الحياة، فاقرأ إن شئت قوله:

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعز عندي من العلـ ـم فلا أبتغي سواه أنيسا

ولا يضر أمثال القاضي الجرجاني أن يقلل من لقاء الناس، ويؤثر أن يكون للبيت والكتاب جليساً، ما دام يحمل في يمينه قلماً يبث به في القراطيس

ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، فقد حرر بذلك القلم البارع مؤلفات غير كتاب «الوساطة»، منها: «تفسير القرآن المجيد»، وكتاب «تهذيب التاريخ».

عاش القاضي الجرجاني في عزة ووجاهة واستقامة، وتوفي سنة ٣٦٦هـ، وهو قاضي القضاة بالري، وحمل تابوته إلى «جرجان»، ودفن بها، جازاه الله عن إعزازه للعلم خير الجزاء.





حُجَّة الإسلام الغزاليّ [1]

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي.

ولد في «طوس» سنة ٤٤٥، وتلقى العلم في بداية أمره على الأستاذ أحمد بن محمد الراذكاني، ورحل إلى «جرجان»، فأخذ عن الأستاذ أبي نصر الإسماعيلي، وعاد إلى «طوس»، فمكث بها نحو ثلاث سنين، وسافر إلى «نيسابور»، فاختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك ابن أبي محمد الجويني، وصرف همته في طلب العلم، فظهر نبوغه في أقرب وقت، وصار من الأعلام المشار إليهم بالبنان في حياة أستاذه إمام الحرمين، ولم يزل ملازماً له إلى أن توفي سنة ٤٧٨.

وخرج أبو حامد من نيسابور إلى «العسكر» حيث يقيم الوزير نظام الملك، فعرف الوزير قدره، وأقبل عليه باحتفاء، وصار فيمن يحضر مجالس الوزير من أفاضل العلماء، وظهر علمه، وعلا ذكره، فولاه التدريس بمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٨٤، فانتقل إلى بغداد، وأقبل على التدريس، فامتلأت قلوب أهل العراق بالإعجاب به، وسمت عندهم مكانته؛ وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق، ولم يكن منه إلا أن نبذ الدنيا وراء ظهره، ولاذ بالزهد سنة ٤٨٨، فرحل من بغداد إلى الحجاز، فأدى فريضة الحج، وتوجه إلى

---

(١) مقدمة كتاب «إحياء علوم الدين».

الشام، فأقام بدمشق مدة، وانتقل منها إلى بيت المقدس، وبقي في تلك الديار نحو عشر سنين ألف فيها كتباً قيمة، منها: كتاب «إحياء علوم الدين».

ثم قصد مصر، فأقام بالإسكندرية حيناً يقصد ـ فيما يقال ـ الركوبَ في البحر إلى بلاد المغرب للاجتماع بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، ولما بلغته وفاته، عدل عن السفر، ورجع إلى بغداد، وألقى بها دروساً، ثم انتقل إلى خراسان، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية في «نيسابور»، وعاد بعدُ إلى بلده «طوس»، واتخذ خانقاه للصوفية، ومدرسة لطلاب العلم، وكان يقضي أوقاته في تلاوة القرآن، ومجالسة أهل التقوى، والجلوس للتدريس، إلى أن توفي سنة ٥٠٥ خمس وخمس مئة، ودفن بظاهر الطابران (إحدى بلدتي طوس).

ولم يسلم الغزالي في حياته مما يبتلى به أكثر الراسخين في العلم من مناوأة جاهل لا يقدر الرسوخ في العلم قدره، وسعاية زائغ عن الرشد يحرق فؤادَه دعوةٌ إلى الحق خالصة القصد، قوية الحجة، مثل دعوة الغزالي. وقد أشار الحافظ ابن عساكر في كتاب «تبيين كذب المفتري» إلى ما كان الغزالي يقاسيه من مناوأة الخصوم، والسعي به إلى الملوك، وأن الله حفظه وصانه عن أن تنوشه أيدي النكبات، أو ينتهك ستر دينه بشيء من الزلات.

وقد أطنب الكاتبون في الثناء على أبي حامد، وبسطوا الحديث عن حياته العلمية، وأكتفي هنا بثناء أبي بكر بن العربي عليه في كتاب «قانون التأويل» إذ يقول: «ورد علينا ـ أي: في بغداد ـ ذانشمند ـ يعني: الغزالي ـ، فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية، معرضاً عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشينا إليه، وعرضنا أمنيتنا عليه، وقلت له: أنت ضالتنا التي كنا

ننشد، وإمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفـة، وتحققنا أن الـذي نقل إلينا من أن «الخبر على الغائـب فوق المشاهدة» ليس على العموم، ولو رآه علي بن العباس لما قال:

إذا مـا مـدحت امـَرأً غائبـاً فـلا تغـلُ فـي مدحـه واقـصد

فإنـك إن تغـلُ، تغـل الظنـو ن فيـه إلـى الأمـد الأبعـد

فيـصغر مـن حيـث عظَّمتـه لفـضل المغيـب علـى المـشهد

وذكر في كتاب «القواسم والعواصم» بعد الحديث عن مسألة كشف الغيوب، فقال: «فاوضت فيها أبا حامد الغزالي حين لقائي له بمدرسة السلام في جمادى الآخرة سنة تسعين وأربع مئة، وقد كان راضَ نفسه بالطريقة الصوفية من سنة ست وثمانين إلى ذلك الوقت نحواً من خمسة أعوام، وتجرد لها، واصطحب مع العزلة، ونبذ كل فرقة، فتفرغ لي بسبب بيناه في ترتيب الرحلة، فقرأت عليه جملة من كتبه، وسمعت كتابه الذي سماه «الإحياء لعلوم الدين»، فسألت سؤال المسترشد في عقيدته، المستكشف عن طريقته، لأقف من سر تلك الرموز التي أومأ إليها في كتبه على موقف تام المعرفة، وطفق يجاوبني مجاوبة الفاهم لطريق التسديد للمريد؛ لعظيم مرتبته، وسمو منزلته، وما ثبت له في النفوس من تكرمة، فقال لي من لفظه، وكتبه لي بخطه: إن القلب إذا تطهر عن علاقة البدن المحسوس، وتجرد للمعقول، انكشفت له الحقائق، وهذه أمور لا تدرك إلا بالتجربة لها عند أربابها؛ بالسكون معهم، والصحبة لهم» إلخ.

للغزالي مؤلفات كثيرة، ومن أنفس ما خطته يده كتاب «الإحياء»، وقد ألف الغزالي هذا الكتاب بعد أن درس الفلسفة، واستقصى ما عند أهلها، وبعد

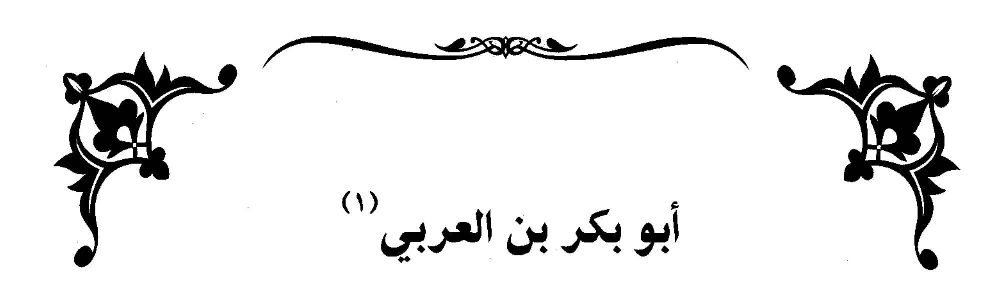
أن أقبل بهمة على طريق الصوفية، فطالع كتبهم؛ مثل: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المثورة عن الجنيد، والشبلي، وأبي يزيد البسطامي، وظهر عنده أن لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكف النفس عن الهوى، ثم واظب على العزلة والخلوة.

فلا عجب أن يبلغ كتاب «الإحياء» في الغوص على أسرار الشريعة، والبحث عن دقائق علم الأخلاق وأحوال النفس، غاية بعيدة، فكتاب «الإحياء» من صنع عقل نشأ في قوة، ورسخ في علوم الشريعة، وخاض في العلوم العقلية، فوقف على كبيرها وصغيرها، وفرق بين سليمها ومعيبها، وخلص بعد هذا من كدور الهوى، وظلمات الحرص على عرض الدنيا.

وقد كان الناقدون لكتاب «الإحياء» يعيبونه بما احتواه من بعض الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة، وربما اعتذروا عن مؤلفه بأنه لم يكن طويل الباع في علم الحديث، بل نقلوا عنه أنه كان يقول عن نفسه: «أنا مزجي البضاعة في علم الحديث».

وقد قام بإصلاح هذا النقص الحافظ العراقي، زين الدين عبد الرحيم، فألف في تخريج أحاديثه كتاباً في مجلدين، ثم اختصره في مجلد سماه «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار».

وإذا وجد العلماء في كتاب «الإحياء» مآخذ معدودة، فإنه من صنع بشر غير معصوم من الزلل، وكفى كتاب «الإحياء» فضلاً وسموَّ منزلة أن تكون درر فوائده فوق ما يتناوله العد، وأن يظفر منه طلاب العلم وعشاق الفضيلة بما لا يظفرون به من كتاب غيره، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[البقرة: ٢٦٩].



أبو بكر بن العربي[1]

أخرجت معاهد العلم في بلاد الشرق رجالاً خدموا الإسلام بصدق روايتهم، واستقلال أنظارهم، وشجاعتهم في الدعوة إلى الحق، وصبرهم على ما يلاقون في سبيل ذلك من الأذى، ورزقوا بعد هذا خلقاً سامياً، وازدراء لكل ما لا يدنيهم من مجادة في الدنيا، أو سعادة في الأخرى. وفي مقدمة هذه الطبقة ـ فيما أرى ـ القاضي أبو بكر بن العربي، وهو محمد بن عبدالله بن محمد ابن عبدالله بن أحمد بن العربي الإشبيلي الأندلسي.

*** مولده ونشأته:**

ولد صاحب الترجمة بإشبيلية سنة ٤٦٨، وكان والده عبدالله بن محمد من العلماء الذين أحرزوا في دولة بني عباد حظوة وصدارة، فنشأ أبو بكر في بيئة علم وفضل، وفي بيت يتصل بسياسة الدولة، وذلك مما يهيىء صاحب الفطرة السليمة كأبي بكر بن العربي لأن ينبغ في العلم، ويسبق إلى ذروة المجد.

بلغ أبو بكر سنّ التعلم، فأخذ عن أبيه عبدالله، وخاله أبي القاسم الحسن الهوزني، وأبي عبدالله السرقسطي، وقرأ القراءات، وأخذ حظاً عظيماً من علوم

(١) محاضرة الإمام في دار جمعية «الهداية الإسلامية» مساء يوم الخميس ٢٢ رجب ١٣٥٥. ونشرت في مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء الثاني من المجلد التاسع.

العربية وآدابها، ونقل عنه أنه قال: لم أرحل من الأندلس حتى أحكمت كتاب سيبويه.

*** رحلته إلى الشرق:**

لما انقرضت دولة بني عباد بإشـبيلية، رحل به أبوه إلى الشـرق وسنّه يومئذ ١٧ سنة، ودخل بلاداً كانت مشرقة بنور العلم، فأخذ عن أجلَّة علمائها، مثل «بجاية»، و«المهدية» بإفريقية، ثم الاسكندرية ومصر والشام والعراق والحجاز، وقفل راجعاً إلى وطنه، فلما وصل إلى الإسكندرية، توفي بها أبوه، وعاد إلى وطنه، والناس في أشد الحاجة إليه، وقضى في رحلته ثماني سنين في إحدى الروايات، وعشراً في بعضها.

قال القاضي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد: لما رحلت إلى قرطبة، قرأت على الحافظ أبي بكر، ولزمته، فسمعني ذات يوم أذكر الانصراف إلى وطني بالمرية، فقال لي: ما هذا القلق؟! أقم حتى يكون لك في رحلتك عشرة أعوام كما كان لي.

*** لقاؤه في رحلته أبا حامد الغزالي:**

قال ابن العربي في «قانون التأويل»: ورد علينا ذانشمند ـ يعني: أبا حامد الغزالي ـ، فنزل في رباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية، معرضاً عن الدنيا، مقبلاً على الله تعالى، فمشينا إليه، وعرضنا أمنيتنا عليه، وقلت له: أنت ضالتنا التي كنا ننشد، وإمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة، وتحققنا أن الذي نقل إلينا من أن الخبر على الغائب فوق المشاهدة، ليس على العموم، ولو رآه علي بن العباس لما قال:

إذا مـــدحت امـــرأ غائبـــاً فـلا تغـل فـي مدحـه واقـصد
فإنـــك إن تغـــل تغـــل الظنـــو ن فيـــه إلـــى الأمـــد الأبعـــد
فيـــصغر مـــن حيـــث عظَّمْتـــه لفـضل المغيـب علـى المـشهد

ولم يمنع أبا بكر إجلالُه للغزالي أن يناقشه في كثير من المسائل، كما أنكر عليه قوله في كتاب «الإحياء»: «ما في الإمكان أبدع مما كان[1]»، وقال: «ونحن وإن كنا قطرة في بحره، فلا نرد عليه إلا بقوله، فسبحان من أكمل شيخنا بفواضل الخلائق، ثم صرف به عن هذه الواضحة في الطرائق».

* **رجوعه إلى الأندلس:**

عاد أبو بكر إلى الأندلس والنفوس إليه متطلعة، فوجدوه في العلم بحراً زاخراً، وفي الأدب قمراً زاهراً، فلقي منهم إقبالاً، وشملته منهم حظوة، ولسعة علمه، وقوة حفظه لما كان يرويه من الأحاديث والآثار، وقع في وهم بعض من لم يبلغ هذه الدرجة أن أبا بكر قد يروي ما لم يسمع، فقال:

يا أهل حمص[2] ومن بها أوصيكم بـالبر والتقـوى وصـية مـشفق
فخذوا عن العربي أسمار الدجى وخذوا الرواية عـن إمـام مـشفق
إن الفتـى ذرب اللـسان مهـذب إن لم يجد خبراً صـحيحاً يخلـق

* **شدة ارتياحه لرحلته:**

ذكر أبو بكر مسألة استياك الصائم بعد العصر، وأورد الخلاف الذي

---

(١) يعني: أن خَلق هذا العالم لا يمكن أن يكون أحسن من هذه الصفات. ومن أهل العلم من ذهب إلى أن هذه الجملة مدسوسة على أبي حامد، ومن القريب تأويل نفي إمكان الإبداعية من جهة تعلق حكمة الله بخلق العالم على هذا النظام.

(٢) هي إشبيلية.

جرى فيها بين المالكية والشافعية، وما استفاده من بعض علماء بغداد في وجهة نظر المالكية، وقال: لو لم أستفد في رحلتي إلا هذه المسألة، لكفاني.

*** اتصاله بالسلطان:**

لازم أبو عبدالله بن المجاهد مجلس أبي بكر نحواً من ثلاثة أشهر، ثم تخلف عنه، فسئل عن سبب تخلفه، فقال: كان - يعني: أبا بكر - يدرس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب للسلطان، والواقع أن اتصال العالم المتين في علمه وتقواه بالسلطان لا يأتي إلا بخير، فهنالك تكون النصيحة التي تكف شراً عظيماً، أو تثمر خيراً عاماً.

*** ولايته قضاء إشبيلية:**

تقلد منصب قاضي القضاة بإشبيلية، فأقام ميزان العدل، وضبط الأمور بيد الحزم، والتزم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يخاف لومة لائم، وربما صدرت عنه أحكام صارمة، كما روي أنه عاقب زمّاراً بثقب شدقه.

قال القاضي عياض يتحدث عن ابن العربي: «واستقضي ببلده، فنفع الله به أهلها؛ لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، وتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة».

*** محنته:**

كان قد ألزم الناس بإحضار جلود ضحاياهم لإصلاح جانب من سور إشبيلية قد تهدم، ولم يكن هناك مال، فأحضروها وهم مكرهون، وبلغ من غيظ العامة أن أضمروا له شراً، وهجموا على منزله، ونهبوا أمواله وكتبه، ولولا أنه فرّ من ظهر البيت، لآذوه في نفسه.

والعبرة في هذه القصة: أن علماء الإسلام كانوا يوجهون أنظارهم

إلى المصالح العامة، ولاسيما وسائل حماية البلاد من أن تمتد إليها يد عدوّ لا يرعى فيها عهداً، ولا تأخذه بها رأفة، وكم من عالم قد قرأنا في تاريخ حياته أنه مات شهيداً في سبيل الدفاع عن دينه ووطنه!.

وتومئ هذه الواقعة إلى أن الناس هم الناس، قد يبخلون بالأمر الحقير عن الأمور الهامة الجليلة، ويبلغ بهم البخل أن يبغضوا الداعي إلى الإصلاح، ويعملوا جهدهم في إيذائه ما استطاعوا.

*** إقباله على نشر العلم:**

صرف صاحب الترجمة من القضاء، وانتقل إلى قرطبة، وأقبل على نشر العلم غير آسف على القضاء، وكان يقول: «إن القاضي إذا ولي القضاء عامين، نسي أكثر مما كان يحفظ، فينبغي له أن يعزل، وأن يتدارك نفسه».

وكنت وليت في تونس قضاء «بنزرت» وملحقاتها، فأحسست أن هذه الولاية ستقف بي في العلم عند حد، وصغرت في عيني، فاستقلت منها بعد أن قمت بواجبها نحو سنة وأربعة أشهر، ورجعت إلى الحاضرة، وأقبلت على التدريس بجامع الزيتونة.

وكان صاحب الترجمة منقطعاً للبحث والمطالعة، حتى إنه كان يضع الكتب عن يمين الفراش ويساره، ولا يطفئ المصباح، وإذا غلبه النوم، نام، ومهما استيقظ، مد يده إلى كتاب[1].

وممن أخذ عن ابن العربي، وسمع منه: القاضي عياض، والإمام السهيلي صاحب «الروض الأنف».

---

(١) حكى عنه هذا بعض أهل العلم الذين صحبوه أيام كان بقرطبة.

* رسوخه في الأدب:

قد عرفنا أن أبا بكر قد درس علم الأدب قبل رحلته، وقرأنا من رحلته: أنه قرأ الأدب على التبريزي، ثم إن من ينظر في الجمل البليغة التي تجيء في مؤلفاته، يدرك أنها صادرة من أديب جال في منظوم البلغاء ومنثورهم جولة واسعة، وله شعر جيد، ولا ينتظر ممن يقضي الوقت في بحث العلوم ودراستها أن يأتي من الشعر بمثل ما يأتي به أبو تمام وابن الرومي.

* انتفاعه بالأدب في بعض الشدائد:

ذكر ابن العربي في كتاب «قانون التأويل» ركوبه البحر في رحلته من إفريقية، وحكى أن البحر عظم عليهم، وتلاطمت بهم أمواجه، فوقعوا في هول كبير، ولكن الله سلم، فخرجوا منه خروج الميت من القبر، وانتهوا بعد شدة إلى بيوت بني كعب بن سليم، ووقف ابن العربي على باب أميرهم، فوجده يدير أعواد الشاه (الشطرنج)، فدنا منه، وأشار على الأمير بتحريك قطعة، فعارضه صاحبه؛ فأشار عليه بتحريك قطعة أخرى، فهزم الأمير صاحبه[1]، وأضاف إلى هذا أحاديث من الأدب الرائق، فعظم في عين الأمير، فأقبل يتعجب منه، ويسأله عن سنه، ويستكشف حاله، فأخبره بما لاقوه من هول البحر، فاستدعى أباه، وبالغ في إكرامهم؛ قال أبو بكر: فانظر إلى هذا العلم - يعني: التلهي بالشطرنج - الذي هو إلى الجهل أقرب، مع تلك الصبابة اليسيرة من الأدب، كيف أنقذا من العطب.

* رأيه في طريقة التعليم:

يرى أبو بكر تقديم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم، ثم ينتقل

---

(١) قال أبو بكر: كان علق بنفسي بعض ذلك من بعض القرابة في خلس البطالة.

منه إلى درس الحســاب، ثم ينتقل منه إلى درس القرآن، ثم ينظر في أصول الدين، ثم في أصول الفقه، ثم الجدل، ثم الحديث وعلومه.

ومن رأيه: أن لا يخلط في التعليم علمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك بجودة الفهم والنشاط، وأنكر على علماء بلده الذي يأخذون الصبي في أول أمره بكتاب الله، حيث إنه يقرأ ما لا يفهم.

قال ابن خلدون: وهو لعمري مذهب حسن، إلا أن العوائد لا تساعد عليه، ثم قال: ووجـه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسـة القرآن إيثـار للتبرك والثواب، وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفـات والقواطع عن العلم، فيفوته القرآن؛ لأنه ما دام في الحجر منقاد للحكم، فإذا تجاوز البلوغ، وانحل من ربقة القهر، فربما عصفت به رياح الشبيبة، فألقته بساحل البطالة.

ولو أعطي جانب من أوقات الطفل إلى تعلم القرآن، وجانب منها إلى أخذ مبادئ من علم الحســاب، وعلوم اللغة، ومختارات من الشعر، لكان خيراً.

*** مؤلفاته:**

المصنفون كثير، أما الذين يكتبون على بينة مما يكتبون، فيتقنون الرواية إذا رووا، ويراعون قانون أدب البحث إذا استنبطوا، فليسوا بكثير، ومن أهل هذه الطبقة أبو بكر بن العربي، فإنك لا تفتح كتاباً من مؤلفاته إلا وجدت علماً غزيراً، ونقداً عادلاً، وفكراً يتصرف في حرية، وعبارات على إيجازها تجعل ما أشكل من المسائل صبحاً بيناً، ومن مؤلفاته كتاب «أحكام القرآن»، وكتاب «القبس»، وكتاب «ترتيب المسالك» (كلاهما شرح

لموطأ مالك) و«عارضة الأحوذي في شرح متن الترمذي»، و«قانون التأويل»[1]، و«أنوار الفجر» (كلاهما تفسير للقرآن المجيد)، وكتاب «النيرين في الصحيحين»، وكتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف»، إلى غير هذا من الكتب القيمة.

ولأبي بكر هذا فضل في انصرافي عن دراسة علوم الدين دراسة تقليد ومتابعة، شأن من لا يزيد في التفقه على قراءة مثل «مختصر خليل» وشروحه وحواشيه، ذلك أني اتصلت بمكتبة خالي وأستاذي المرحوم الشيخ سيدي محمد المكي بن عزوز، واستعرت منها كتاب «العارضة»، وكتاب «القبس»، وجزءاً من «ترتيب المسالك»[2] ثم اتصلت بمكتبة صديقي العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور شيخ الإسلام المالكي بتونس لهذا العهد، واستعرت منها كتاب «الأحكام»، وكتاب «العواصم من القواصم»، فأعجبت بطريقة المؤلف في التأليف، ووجدتها الطريقة التي تنهض بالفكر حتى يكون مثمراً؛ بل الطريقة التي تحبب إلى ذي الفطرة السليمة دراسة العلوم الدينية، والواقع أن هذه الكتب كانت أول ما أخذني إلى النظر في علوم الشريعة بتلهف، بعد أن كنت قد انقطعت إلى علوم اللغة العربية وآدابها.

*** أخلاقه:**

يجمع أبو بكر إلى غزارة العلم: «أدب الأخلاق، وحسن المعاشرة، ولين الكتف، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود»[3].

---

(١) يوجد منه جزء في دار الكتب المصرية.

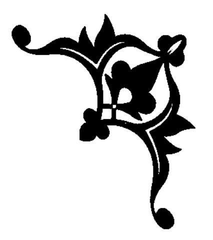
(٢) وطالعت الجزء الثاني منه في إحدى مكاتب الجزائر.

(٣) «نفح الطيب».

*** وفاته :**

بعد أن استولى الموحدون على مدينة إشبيلية فيما استولوا عليه من بلاد الأندلس، توجه أبو بكر بن العربي مع جماعة من أهل بلده إلى المغرب الأقصى، فأدركته المنية هناك، ودفن بفاس خارج باب المحروق، وقبره معروف، قال المقري في «أزهار الرياض» : وقد زرته مراراً. أفاض الله على قبره رحمة ونوراً.



أحمد تيمور باشا[1]

أقف موقف التأبين لعظيم من أولئك العظماء الذين لا يسمح بهم الزمان إلا في أوقات نادرة، ليكونوا مُثلاً عالية لكمال الإنسان، حتى إذا قدر النبهاء من الناس أقدارهم، وأخذوا ينحون في بناء الشرف نحوهم، ورحلوا إلى دار السلام عند ربهم وغادروا القلوب تحترق أسفاً، والأكباد تتقطع تلهفاً.

لا أستطيع أن أرسم في هذا المقام صورة تمثل أو تكاد تمثل كمال الفقيد من كل ناحية، وإنما هي كلمة أصف بها جانباً من خصاله الحميدة، عسى أن يكون في إلقائها تذكرة لطلاب الفضيلة من أبنائنا الناهضين.

في سنة ١٣٤٠ زرتُ المكتبة الزكية وهي في جناح من دار الكتب المصرية، فلقيت هنالك صاحب السعادة أحمد تيمور باشا، فجرى بيننا تعارف، وسرعان ما انقلب التعارف وداً، وما برح الود ينمو حتى أخصب، وصار الصداقة التي يرتاب في وجودها بعض المتأدبين، ويزعم أنها ثالثة الغول والعنقاء، فإذا تحدثت عن شيء من كمال الفقيد، فإنما أتحدث عما كنت أشهده المرة بعد الأخرى، وأقرؤه في سريرته سافراً لا أجد دون قراءته ساتراً.

---

(١) مجلة «الهداية الإسلامية» ـ الجزء التاسع من المجلد الثاني.

*** حياته الخلقية:**

تلاقي العلامة الكبير أحمد تيمور باشا، فتشهد طلاقة محيا، وابتسامة تملأ ناظريك أنساً، فإذا مد يده إلى مصافحتك، انحنى قليلاً؛ ليخالف عادة المترفين الذين يرفعون رؤوسهم في شيء من التعاظم والخيلاء.

وفي الناس من تجلس إليه ساعة من ليل أو نهار، فلا يلبث أن ينطلق في حديثه إلى شيء من الافتخار بما عنده، أما تيمور باشا، فحرام أن تسمع منه كلمة تومئ إلى فخر، ولو من طريق بعيد.

عرف الفقيد بالتواضع، وهو الخلق الذي كان يجذب إليه قلوب أهل الفضل لأول ما تقع عليه أبصارهم، وأقول الساعة: إنه كان يتواضع في ألمعية وحكمة، وربما خفض جناح التواضع لذي فطرة سليمة لا يقيم له أولو النعمة وزناً، أكثر مما يخفضه لذي جاه نافذ أو مقام نبيه، وله مع هذا التواضع مقامات يمثل فيها شمم العلماء، وعزة المؤمنين.

يزدري الفقيد مظاهر الأبهة التي تهوي إليها أفئدة كثير ممن هم عن طريق الحمد غافلون، وإذا أصبح يؤثر العزلة إلا قليلاً، فإنه ما برح يخوض غمار الاجتماع بما يقدمه من نتائج عرفانه وجلائل إحسانه.

يأخذ الفقيد بسنّة الوصل والقطع في الله، ويسير على هذه السنّة بعزم لا يهن، وقدم لا يتزلزل، وأسوق على هذا: أنه كان قد اشترك في صحيفة من صحف الأقطار البعيدة عن مصر، فجاءته يوماً تحمل مدحاً له وثناء، لكنها سمَّت في مقام آخر الخروج على الإسلام إصلاحاً، والخارجين عليه مصلحين، فما كان منه إلا أن أعادها قاطعاً الاشتراك فيها، وقال: لا حاجة له في مدح صحيفة تطعن في الشريعة الغراء.

عرف الفقيد بالتؤدة والرصانة، ومن أجلى ما يتمثل فيه هذا الخلق العظيم: أنه كان يحتفظ بالآداب القومية، ويأبى أن يستبد بها آداباً غير شرقية، فما كان ليضع في تاريخ الرسائل إلا الشهر العربي، والسنة الهجرية، ولو كانت الرسائل موجهة إلى شركة أجنبية.

وهذا مثال صغير ينبئكم عما وراءه من الاعتزاز بالقومية، وهل يحتقر الرجل قوميته بأكثر من أن يولع بتقليد قوم آخرين، ويحاكيهم فيما لا مدخل له في علو شأنهم وقوة سلطانهم؟ .

ومن الأخلاق الضائعة في الشرق، إلا بين طبقة خاصة من الناس: خصلة القيام على الوعد، وصيانته من الإخلاف، وكان الفقيد يرعى هذه الخصلة حق رعايتها، فإذا قطع وعداً في أمر جليل أو حقير، وجد في نفسه مذكراً فطرياً حتى يكون الوعد ناجزاً، ولطول ما صحبناه على هذا الخلق الحازم لم نرتب فيما إذا عين وقتاً للّقاء أن يكون عند الوقت حاضراً.

يرعى الفقيد عهد إخوانه، ويبذل ما استطاع في قضاء ما يهمهم، ولا أنسى أن أمراً اقتضى سفري إلى الإسكندرية، وأشفق ـ رحمه الله ـ من أن لا أهتدي طريق الوصول إليه، فأزمع السفر، ولا داعي له إلى هذا السفر إلا عاطفة المودة، وأمتعني بمرافقته ذهاباً وإياباً.

يزن تيمور باشا الرجال كما يزنهم غيره ليعلم أيهم أرجح في الفضل وزناً، ولكنه لا يضع في جانب ما يفضل به قدر الرجل شيئاً غير العلم وسلامة العقيدة ومكارم الأخلاق، هذا قانون الفضل في رأي الفقيد، واحترامه القلبي والعملي للأشخاص، وإلقاؤه إليهم بالمودة لا يخرج عن حدود هذا القانون.

ينفق الفقيد في وجوه البر بأريحية وبسط راحة، وإذا لم يظهر من إحسانه إلا ما يهبه لبعض الجمعيات الخيرية أو الأدبية، فإن المتواري منها؛ كالذي يسعف به ذوي الحاجات من الأسر والأفراد شيء كثير، ومن شواهد إخلاصه فيما ينفق: أنه كان يهب لبعض الجمعيات الإصلاحية في المرة الواحدة نحو الخمسين ديناراً، أو المئة دينار، وإذا جاءه من تسلم منه المبلغ بإيصال من الجمعية، أبى أن يقبله، وقال له: مزقه إن شئت، ولا وجه لكتابته، فضلاً عن الاحتفاظ به.

في الفقيد صبر جميل، وما هو على الحياة بحريص، كنت أزوره وهو على فراش مرَض خطير، فإذا تجاوزت باب الغرفة مقبلاً، هبّ على وجهه ابتسام يعقبه تحية، فمحادثته خالية من شكوى المرض، أو الضجر من مصابه.

يرتاح الفقيد للطرف الأدبية، ويوردها في المجلس حسب اقتضاء المقام، ولكنني لم أره يداعب في محادثته قريباً أو صديقاً، فضلاً عمن يلاقونه في أوقات نادرة، ونظره الصائب في هذه الحياة، ورسوخ طبيعة الجد في نفسه قد جعلاه لا يألف إلا حديثاً في علم أو أدب، أو شأن من شؤون الاجتماع، وهما اللذان جعلاه لا يشغل شيئاً من وقته في لهو، ولم أر قط في منزله نرداً، أو شطرنجاً، أو نحوهما من الملاهي التي تأكل عمر المغرم بها أكل النار للهشيم.

يتحدث الفقيد في صوت منخفض هادئ، وهو يملك أن يداري، فيبسط وجهاً رحباً، ولساناً بالتحية أو الحديث رطباً، وليس في استطاعته أن يداهن، فيقول للمسيء: أحسنت، أو للمخطئ: أصبت، وإذا منعه حياؤه

الرقيق من أن يصارح جليسه بالتخطئة في علم أو رأي، فإنه يسلك في تنبيهه على الخطأ طريقة رفيقة بعيدة عن هيئة المعارضة، وليس من شأنها أن تجرَّ إلى مناقشة.

*** حياته العلمية:**

إذا كان نبوغ الرجل في العلم على قدر صفاء قريحته، وحرصه على أن يعلم ما لم يعلم، فحظ الفقيد من هاتين المزيتين عظيم.

كان ـ رحمه الله ـ وضيء الفكر، ذا رغبة متناهية في أن يزداد كل يوم علماً، وقد هيأ الله له أن أنشأ تلك المكتبة الحافلة بالكتب القيمة، فلا جرم أن كان العلامة الذي يقف دون شأوه كثير من فرسان البراعة والتحرير.

يطلب فريقٌ العلمَ لليسار، والفقيد محفوف باليسار من قبل أن يطلب العلم.

ويطلبه فريق للمنصب، والفقيد تصافحه المناصب، فيسل يده من مصافحتها.

ويطلبه آخرون للمباهاة، وما بين الفقيد والمباهاة مثل ما بين السماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع.

إذن لم يطلب تيمور باشا العلم إلا لفضيلته، ومن طلب العلم لفضيلته يريد أن لا يدع ثمرة من ثمره إلا قطفها، ولا زهرة من أزهاره إلا تنسمها.

كنت أزوره وهو على فراش مرض أشار عليه الأطباء فيه بالتزام السكون، وإراحة الفكر من كل عمل، فأرى بجانب قوارير الأدوية كتباً كثيرة، ويقول لي: إني لا أستطيع الانقطاع عن المطالعة، ولكن نظراً لإشارة الطبيب أقتصر

على مطالعة الكتب التي لا تستدعي إجهاد فكر؛ ككتب الأدب والتاريخ.

لا يقنع الفقيد في بحث الموضوعات العلمية حتى يبلغ الأمد الأقصى، فيمعن في البحث، ويتقصى أثر الموضوع من الكتب التي شأنها التعرض له حتى يلم به من كل ناحية، وهذه مقالات الآثار النبوية التي حررها في «مجلة الهداية الإسلامية»، وهي آخر موضوع خاض فيه قلمه الأمين، لم يكتف فيها بما استمده من كتب الحديث والسيرة والتاريخ والأدب، فكان يبعث برسائل إلى سورية وفلسطين وتونس وغيرها من البلاد، ويسأل عما يوجد هنالك مما يدَّعى أنه آثار نبوية، وكان ينقد ما يورده في هذا القصد، ويضعه في الدرجة التي يستحقها بحكم آداب البحث.

يتلقى الفقيد نقد آرائه بأناة وطمأنينة شأن من يخدم العلم بإخلاص، ولا يهمه إلا أن تظهر الحقائق سافرة كما هي، وليس من سمائه ولا أرضه الحرص على أن يعتقد فيه الناس العصمة من الخطأ، وإنما هو دأب المرائي في العلم، ينزعج من نقد آرائه، فيثور للدفاع عنها، وإن استيقنت نفسه أنها الباطل، مكشراً عن أنيابه تحت وضح البرهان.

عرف الفقيد بسعة الاطلاع، ودقة البحث، فكان كالوادي الخصب ينتجعه الباحثون في الشرق والغرب، فيجدون عنده ما يكشف الحيرة، ويجعل النفس في قرار من العلم.

وله بعد أجوبة المسترشدين مقالات علمية كان ينشرها بالصحف: «المؤيد» و«الهلال»، و«المقتطف»، و«المقتبس» ومجلة «الزهراء»، و«الفتح»، ومجلة «المجمع العلمي»، ومجلة «الهداية الإسلامية».

أما مؤلفاته، فهي «ذيل طبقات الأطباء»، و«تاريخ رجال القرن الثالث

عشر والرابع عشر»، و«نظرة تاريخية في انتشار المذاهب الأربعة»، و«تاريخ الطائفة اليزيدية»، و«تاريخ العلم العثماني»، و«نقد القسم التاريخي لدائرة معارف فريد وجدي بك»، و«لُعب العرب»، و«التصوير عند العرب»، و«تراجم المهندسين من العرب»، و«معجم اللغة العامية»، والقصد من هذا التأليف: الرد على من يدعون إلى إقامة العامية مقام العربية الفصحى بدعوى أنه يوجد في العامية من الكلمات ما ليس له في اللغة الفصحى من رديف، و«معجم الفوائد»، وهو كتاب يشتمل على مسائل قيمة من علوم شتى، و«البرقيات»، وهو كتاب يحتوي على الكلمات التي يدل كل مفرد منها على معان متعددة، و«حياة أبي العلاء المعري وعقيدته»، و«مفتاح الخزانة».

يغار الفقيد على اللغة العربية، ويحرص على أن تكون نقية من الألفاظ الأجنبية، وكان من أجل هذا يتحامى أن يضع ـ ولو في رسائله المعتادة ـ كلمة غير عربية فصيحة، فكان يعبر عن التليفون ـ مثلاً ـ بالهاتف، كتب لي من الإسكندرية في الصيف الماضي: «رقم الهاتف (٧٥٧) البلد»، بل يعبر عن الجنيه بالدينار، كتب لي من هنالك: «سرني إقامة حفلة لمرور سنة على مجلة «الهداية الإسلامية»، وأتبرع لهذه الحفلة بعشرة دنانير»، وكان يعجبه أن يكتب كاتب الجمعية أو اللجنة في التواضع: (كاتم السر) بدل كلمة (السكرتير).

للفقيد ـ رحمه الله ـ عناية بالآثار العلمية، فاجتمع في مكتبته من المؤلفات والأوراق المشتملة على خطوط العلماء ما لا أحسبه يوجد في مكتبة شرقية غيرها، وأذكر بهذه المناسبة: أني كنت أنهيت «نقض كتاب في الشعر الجاهلي» بقلم ذي مداد أحمر (كوبية)، ونظمت أبياتاً على لسان

القلم[1] وكتبتها بنفس القلم، وأهديته مع الأبيات إلى المكتبة التيمورية، فتلقاها الفقيد بارتياح، ووضعها في معرض الآثار العلمية، وقبل وفاته بيوم زار نادي الجمعية، ومعه الصحيفة المكتوب بها الأبيات، وقد تطاير أكثر حروفها، وأبدى رغبته في أن تعاد بمداد ثابت.

درس الفقيد الشريعة الإسلامية على النحو الذي يجعل لها في النفوس مكانة، فأخذ احترامها بمجامع قلبه، وكانت غيرته عليها بالغة، وهذا ما كان يهز أريحيته لمساعدة الجمعيات والصحف التي يقصد بها تقويم المنحرفين عن الدين الحنيف، وما قبل أن يكون عضواً في مجلس إدارة جمعية الهداية الإسلامية إلا ليساعدها برأيه وجاهه، كما كان يساعدها بعلمه ونواله.

هذه كلمة تصف شيئاً من كمال المرحوم أحمد تيمور باشا، ألقيها بقلب ملؤه الأسف لفراقه، والإعجاب بسيرته، ونرجو الله تعالى أن لا يبقي النهضة الإصلاحية كطائر هيض جناحه، أو بطل ضاع سلاحه، وأن يمتع الفقيد بواسع رحمته وحمده، ويجعل نجليه الماجدين قرة أعين أهل الفضل من بعده، والسلام عليكم ورحمة الله.

❐ ❐ ❐

---

(١) هذه هي:

سفكت دمي في الطرس أنمل كاتب ... وطوتني المبراة إلا ما ترى
ناضلت عن حق يحاول ذو هوى ... تصويره للناس شيئاً منكرا
لا تضربوا وجه الثرى ببقية ... مني كما ترمى النواة وتزدرى
فخزانة الأستاذ تيمور ازدهت ... بحلى من العرفان تبهر منظرا
فأنا الشهيد وتلك جنات الهدى ... لا أبتغي بسوى ذراها مظهرا

فهرس الموضوعات

الفهرس العام للموسوعة

الموضوع	الصفحة



الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

* * *

تراجم الرجال

